ديوان

إيليا أبو ماضي

الجزء الثاني

دار العودة . بيروت

ولقد قلتُ لنفسي ، وأنا بينَ المقابرْ
هلْ رأيتِ الأمنَ والرّاحةَ إلّا في الحفائرْ ؟
فأشارتْ : فإذا للدّودِ عيثٌ في المحاجرْ
ثمّ قالتَ : أيّها السّائلُ إنّي ...
لستُ أدري !

•

أنظري كيفَ تساوى الكلُّ في هذا المكانِ
وتلاشى في بقايا العبدِ ربُّ الصّولجانِ
والتقى العاشقُ والقالي فما يفترقانِ
أفبذا منتهى العدلِ ؟ فقالت ...
لستُ أدري !

•

إنْ يكُ الموتُ قصاصاً ، أيُّ ذنبٍ للطّهارهْ
وإذا كانَ ثواباً ، أيُّ فضلٍ للدّعارهْ
وإذا كانَ وما فيه جزاءٌ أو خسارهْ
فلمَ الأسماءُ إثمٌ أو صلاحٌ ؟ ..
لستُ أدري !

أيّها القبرُ تكلّمْ ، وأخبرني يا رِمامْ
هل طوى أحلامَكِ الموتُ وهل ماتَ الغرامْ
مَن هوَ المائتُ مِن عامٍ ومِن مليونِ عامْ
أيصيرُ الوقتُ في الأرماسِ محواً ؟ ..
لستُ أدري !

•

إنْ يكُ الموتُ رقاداً بعدهُ صحوٌ طويلْ
فلماذا ليسَ يبقى صحوُنا هذا الجميلْ ؟
ولماذا المرءُ لا يدري متى وقتُ الرّحيلْ ؟
ومتى ينكشفُ السّرُّ فيدري ؟ ..
لستُ أدري !

•

إنْ يكُ الموتُ هجوعاً يملأُ النّفسَ سلاما
وانعتاقاً لا اعتقالاً وابتداءً لا ختاما
فلماذا أعشقُ النّومَ ولا أهوى الحِماما
ولماذا تجزعُ الأرواحُ منه ؟ ..
لستُ أدري !

•

أوراءَ القبرِ بعدَ الموتِ بعثٌ ونُشُورْ
فحياةٌ فخلودٌ أم فنـــاءٌ ودُثُورْ
أكلامُ الناسِ صدقٌ أم كلامُ الناسِ زورْ
أصحيحٌ أنَّ بعضَ الناسِ يدري ؟ . .
لستُ أدري !

•

إن أكنْ أُبعثُ بعدَ الموتِ جثماناً وعقلاً
أترى أُبعثُ بعضاً أم ترى أُبعثُ كلّاً
أترى أُبعثُ طفلاً أم ترى أُبعثُ كهلاً
ثمَّ هل أعرفُ بعدَ الموتِ ذاتي ؟ . . .
لستُ أدري !

•

يا صديقي ، لا تعلّلني بتمزيقِ الستُورِ
بعدما أقضي فعقلي لا يُبالي بالقشُورِ
إن أكنْ في حالةِ الإدراكِ لا أدري مصيري
كيفَ أدري بعدما أفقدُ رشدي . . .
لستُ أدري !

•

القصر والكوخ :

ولقد أبصرتُ قصراً شاهقاً عالي القِبابْ
قلتُ ما شادَكَ من شادَكَ إلّا للخرابْ
أنتَ جزءٌ منهُ لكنْ لستَ تدري كيفَ غابْ
وهو لا يعلمُ ما تحوي ، أيدري ؟ . .
لستُ أدري !

•

يا مثالاً كانَ وهماً قبلمـــا شاءَ البُناة
أنتَ فكرٌ من دماغٍ غيّبتهُ الظلمات
أنتَ أمنيةُ قلبٍ أكلتهُ الحشرات
أنتَ بانيك الذي شادَكَ لا . . . لا . . .
لستُ أدري !

•

كمْ قصورٍ خالها الباني ستبقى وتدوم
ثابتاتٍ كالرواسي خالداتٍ كالنجوم
سحبَ الدهرُ عليها ذيلَهُ فهي رسوم
مالنا نبني ومـــا نبني لهدمٍ ؟ . .
لستُ أدري !

لم أجد في القصرِ شيئاً ليسَ في الكوخِ المَهينِ
أنا في هذا وهذا عبدُ شكٍّ ويقينِ
وسجينُ الخالدَينِ الليلِ والصُّبحِ المُبينِ
هل أنا في القصر أم في الكوخ أرقى ؟
لستُ أدري !

•

ليسَ في الكوخِ ولا في القصرِ من نفسي مهربْ
إنني أرجو وأخشى ، إنني أرضى وأغضبْ
كانَ ثوبي من حريرٍ مُذْهَبٍ أو كانَ قُنَّبْ
فلماذا يتمنّى الثوبَ عـاري ؟..
لستُ أدري !

•

سائلِ الفجرَ : أعندَ الفجرِ طينٌ ورُخامْ ؟
واسألِ القصرَ ألا يُخفيه، كالكوخِ ، الظلامْ
واسألِ الأنجمَ والريحَ وسلْ صوبَ الغَمامْ
أترى الشيءَ كما نحنُ نراهُ ؟..
لستُ أدري !

•

الفكر :

رُبَّ فكرٍ لاحَ في لوحةِ نفسي وتجلَّى
خلتهُ منّي ولكنْ لم يُقمْ حتّى تولّى
مثلَ طيفٍ لاحَ في بئرٍ قليلاً واضمحلّا
كيفَ وافى ولمـاذا فرَّ منّي ؟
لستُ أدري !

•

أتراهُ سابحاً في الأرضِ من نفسٍ لأخرى
رابهُ منّي أمرٌ فـأبى أن يستقرَّا
أم تراهُ مرَّ في نفسي كما أعبرُ جسرا
هلْ رآهُ قبلَ نفسي غيرُ نفسي ؟
لستُ أدري !

•

أم تُراهُ بارقاً أومضَ حيناً وتوارى
أم تُراهُ كانَ مثلَ الطيرِ في سجنٍ فطارا
أم تُراهُ انحلَّ كالموجةِ في نفسي وغارا
فأنا أبحثُ عنهُ وهوَ فيهـا ،
لستُ أدري !

صراع وعراك :

إنني أشهدُ في نفسي صراعاً وعِراكا
وأرى ذاتيَ شيطاناً وأحياناً ملاكا
هلْ أنا شخصانِ يأبى هذا معْ ذاكَ اشتراكا
أم تُراني واهمـــا فيما أراهُ ؟
لستُ أدري !

•

بينا قلبيَ يحكي في الضحى إحدى الخمائلْ
فيهِ أزهـــارٌ وأطيارٌ تغنّي وجداولْ
أقبلَ العصرُ فأمسى موحشاً كالقفرِ قاحلْ
كيفَ صارَ القلبُ روضاً ثمّ قفراً ؟
لستُ أدري !

•

أينَ ضحكي وبكائي وأنا طفلٌ صغيرْ
أينَ جهلي ومَراحي وأنا غضٌّ غريرْ
أينَ أحلامي وكانتْ كيفما سرتُ تسيرْ
كلّها ضاعتْ ولكن كيفَ ضاعتْ ؟
لستُ أدري !

ليَ إيمانٌ ولكنْ لا كإيماني ونُسكي
إنّني أبكي ولكنْ لا كما قد كنتُ أبكي
وأنا أضحكُ أحياناً ولكنْ أيَّ ضِحكِ
ليتَ شِعري ما الذي بدّلَ أمري ؟
لستُ أدري !

•

كلَّ يومٍ ليَ شأنٌ، كلَّ حينٍ لي شعورْ
هلْ أنا اليومَ أنا منذُ ليالٍ وشهورْ
أم أنا عندَ غروبِ الشمسِ غيري في البكورْ
كلّمـــا ساءلتُ نفسي جاوبتني :
لستُ أدري !

•

رُبَّ أمرٍ كنتُ لمّا كانَ عندي أتّقيهِ
بتُّ لمّـــا غابَ عنّي وتوارى أشتهيهِ
ما الذي حبّبهُ عندي وما بغّضنيهِ
أأنا الشخصُ الذي أعرضَ عنهُ ؟
لستُ أدري !

•

رُبَّ شخصٍ عشتُ معهُ زمناً ألهو وأمرح
أو مكانٍ مرَّ دهرٌ وهوَ لي مسرى ومسرح
لاحَ لي في البُعدِ أجلى منهُ في القُربِ وأوضح
كيفَ يبقى رسمُ شيءٍ قد توارى ؟
لستُ أدري !

•

رُبَّ بستانٍ قضيتُ العمرَ أحمي شجرَهْ
ومنعتُ النّاسَ أن تقطفَ منهُ زهرَهْ
جاءتِ الأطيارُ في الفجرِ فنالتْ ثمرَهْ
ألِلأطيـارِ الثّها البُستانُ أم لي ؟
لستُ أدري !

•

رُبَّ قبحٍ عندَ زيدٍ هو حسنٌ عندَ بكرِ
فهما ضدّانِ فيهِ وهوَ وهمٌ عندَ عمرِو
فمَنِ الصّادقُ فيما يدّعيهِ، ليتَ شعري
ولمـاذا ليسَ للحُسنِ قياسٌ ؟
لستُ أدري !

•

قد رأيتُ الحُسنَ يُنسى مثلما تُنسى العيوبُ
وطلوعُ الشمسِ يُرجى مثلما يُرجى الغروبُ
ورأيتُ الشرَّ مثلَ الخيرِ يمضي ويؤوبُ
فلمـاذا أحسبُ الشرَّ دخيلاً ؟
لستُ أدري !

•

إنَّ هذا الغيثَ يهمي حينَ يهمي مُكرَهَا
وزهورُ الأرضِ تفشي مُجبَراتٍ عطرَها
لا تطيقُ الأرضُ تخفي شوكَها أو زهرَها
لا تسلْ : أيُّهما أشهى وأبهى ؟
لستُ أدري !

•

قد يصيرُ الشوكُ إكليلاً لِملكٍ أو نبيٍّ
ويصيرُ الوردُ في عروةِ لِصٍّ أو بغيٍّ
أيغارُ الشوكُ في الحقلِ منَ الزهرِ الجنيّ
أم تُرى يحسبُهُ أحقرَ منهُ ؟
لستُ أدري !

•

قد يَقيني الخَطَرَ الشوكُ الذي يَجْرَحُ كَفّي
وَيَكونُ السُّمُّ في العِطر الّذي يَملأُ أنفي
إنّما الوردُ هوَ الأفضلُ في شَرعي وعُرفي
وَهوَ شَرعٌ كلّهُ ظُلمٌ ولَكنْ . . .
لَستُ أدري !

•

قَدْ رَأيتُ الشُّهبَ لا تَدري لِماذا تُشرِقُ
وَرَأيتُ السُّحبَ لا تَدري لِماذا تُغدِقُ
وَرَأيتُ الغابَ لا تَدري لِماذا تورِقُ
فلِمــاذا كلُّها في الجَهلِ مِثلي ؟
لَستُ أدري !

•

كُلّما أيقَنتُ أني قَد أمطتُ السِّترَ عني
وَبَلغتُ السِّرَّ سِرّي ضَحِكَت نفسيَ مِني
قَدْ وَجدتُ اليأسَ والحيرةَ لكنْ لم أجِدني
فهــلِ الجَهلُ نَعيمٌ أم جَحيمٌ ؟
لَستُ أدري !

•

لَذَّةٌ عِندي أنْ أسمَعَ تَغريدَ البَلابلْ
وَحَفيفَ الوَرَقِ الأخضَرِ أو هَمسَ الجَداولْ
وأرى الأنجمَ في الظلماءِ تَبدو كالمَشاعِلْ
أترى مِنهــا أمِ اللَّذةُ مِنّي . . .
لَستُ أدري !

•

أتُراني كُنتُ يوماً نَغماً في وَتَرِ
أم تُراني كُنتُ قَبلاً مَوجةً في نَهرِ
أم تُراني كُنتُ في إحدى النُّجومِ الزُّهرِ
أم أريجاً ، أم حَفيفاً ، أم نَسيماً ؟
لَستُ أدري !

•

فيَّ مِثلُ البَحرِ أصدافٌ ورَملٌ ولآلْ
فيَّ كالأرضِ مُروجٌ وسُفوحٌ وجِبالْ
فيَّ كالجَوِّ نُجومٌ وغُيومٌ وظِلالْ
هَــلْ أنا بَحرٌ وأرضٌ وسَماءُ ؟
لَستُ أدري !

•

من شرابي الشهدُ والخمرةُ والماءُ الزلالْ
مِنْ طعامي البقلُ والأثمارُ واللحمُ الحلالْ
كم كيانٍ قدْ تلاشى في كياني واستحالْ
كمْ كيانٍ فيهِ شيءٌ من كِياني ؟
لَسْتُ أدري !

•

أأنا أفصحُ مِنْ عُصفورةِ الوادي وأعذَبْ ؟
ومِنَ الزَّهرةِ أشهى ؟ وشذى الزَّهرةِ أطيبْ ؟
ومِنَ الحيَّةِ أدهى ؟ ومِنَ النَّملةِ أغربْ ؟
أمْ أنا أوضعُ مِنْ هذي وأدنى ؟
لَسْتُ أدري !

كلُّها مثليَ تحيا ، كلُّها مِثلي تموتْ
ولها مِثلي شرابٌ ، ولها مِثليَ قوتْ
وانتباهٌ ورُقادٌ ، وحديثٌ وسُكوتْ
فبِما أمتازُ عنها ليتَ شِعري ؟
لَستُ أدري !

•

قدْ رأيتُ النَّملَ يَسعى مِثلَما أسعى لرِزقي
ولَهُ في العَيشِ أوطارٌ وحقٌّ مِثلُ حقّي
قد تَساوى صَمتُهُ في نَظَرِ الدَّهرِ ونُطقي
فكِلانا صائِرٌ يوماً إلى ما . . .
لَسْتُ أدري !

•

أنا كالصَّهباءِ ، لكنْ أنا صَهبائي ودَنّي
أصلُها خافٍ كأصلي ، سِجنُها طينٌ كَسِجني
ويُزاحُ الخَتمُ عنها مِثلَما يَنشقُّ عنّي
وهيَ لا تفقهُ مَعناها ، وإنّي . . .
لَسْتُ أدري !

•

غلِطَ القائِلُ إنَّ الخَمرَ بنتُ الخابيهْ
فهيَ قبلَ الزقِّ كانت في عُروقِ الدّاليهْ
وحَواها قَبلَ رَحمِ الكَرمِ رَحمُ الغاديهْ
إنَّما مِن قَبلِ هذا أينَ كانتْ ؟
لَسْتُ أدري !

•

هيَ في رأسيَ فِكرٌ، وهيَ في عينيَّ نورُ
وهيَ في صَدريَ آمالٌ، وفي قلبي شُعُورُ
وهيَ في جِسمي دَمٌ يَسري فيهِ ويَمورُ
إنَّما مِنْ قَبلِ هذا كيفَ كانتْ ؟
لَسْتُ أدري !

•

أنا لا أذكُرُ شَيئاً مِنْ حَياتي المَاضِيةْ
أنا لا أعرفُ شيئاً مِنْ حَياتي الآتِيةْ
ليَ ذاتٌ غيرَ أني لَسْتُ أدري مَاهِيةْ
فَمَتى تَعرفُ ذاتي كُنهَ ذاتي ؟
لَسْتُ أدري !

•

إنَّني جِئتُ وأمضي وأنا لا أعلَمُ
أنا لُغزٌ ... وذَهابي كمَجيئي طلسمُ
والّذي أوجَدَ هذا اللُّغزَ لُغزٌ مُبهَمُ
لا تُجادِلْ ذا الحِجا مَن قالَ إنّي ...
لَسْتُ أدري !

★

وفال

المرءُ في غَفلاتِهِ وشَبابِهِ ... والدّهرُ كالرئبالِ في وثَباتِهِ
والعمرُ ظلٌّ والزمانُ يَجدُّ في ... إخفائه، والمرءُ في إثباتِهِ
والحربُ لا تنفكُّ بينهما، ولا ... ينفكُّ هذا المرءُ في حَسَراتِهِ
لا تعجبوا من جَهْلِهِ وغرورِهِ ... وتعجَّبوا إنْ حالَ عن حالاتِهِ
يسعى ولا يَدري إلى حيثُ الرّدى ... وكذا الفراشُ يَحومُ حَولَ مماتِهِ
وتُحبِّبُ الدُّنيا إليهِ نَفسَهُ ... فيُطيعها والنفسُ من آفاتِهِ
ويُضيرها إفلاتُهُ من قيدِها ... وسعادةُ الإنسانِ في إفلاتِهِ
يلقى الضَّراغمَ غيرَ مكترثٍ بها ... فإذا سطَتْ ضَرَبتْ على سَطَواتِهِ
ما قاتلَ البطلَ النجيدَ غضنفرٌ ... إنَّ الغضنفرَ مَنْ عَصى شَهواتِهِ

•

موت العبقري

في رثاء العلامة المرحوم سليمان البستاني

كلُّ ميتٍ مهما علا في حياتِهْ   كلُّ ثاوٍ تحتَ الثرى من لِداتِهْ
لا حدودٌ ولا مقاييسُ في الموتِ   تساوى الجميعُ في ساحاتِهْ
حاصدٌ حقلهُ الوجودُ، وما الأحياءُ   إلا كشوكهِ ونباتِهْ
مَنْ نجا منهُ وهو في رَوْحاتِهْ   إنما قد نجا إلى غَدَواتِهْ
ليسَ زرعُ الغصّاتِ منهُ لثأرٍ   ليسَ حصدُ اللذاتِ من لذّاتِهْ
إنه يسلبُ الغوايةَ كالرشدِ، فليس التمييزُ من عاداتِهْ
لا تقلْ: ما وراءَهُ؟ ذاكَ سرٌّ   خبأتهُ الحياةُ في ظلماتِهْ
ربَّ قبرٍ نمشي عليه وفيه   شهواتٌ تُربي على ذراتِهْ
كلُّ ذي رغبةٍ دَنَتْ أو تسامتْ   سوفَ يمضي يوماً بلا رغباتِهْ
ليسَ عمرُ الفتى وإنْ طالَ إلا   ما حوتهُ الحياةُ من مكرماتِهْ
يعظ النابغُ الخلائقَ حيّاً   إنما موتُهُ أجلُّ عظاتِهْ

. . .

ظهرَ الموتُ للعيونِ جديداً   أمسْ في بطشهِ وفي فتكاتِهْ
وهو تربُ الإنسانِ منذُ استوى في الأرضِ حياً مشى على خطواتِهْ
ما الردى بالحديثِ في الناسِ لكنْ   نكتةُ العلمِ ضاعفتْ روعاتِهْ
فقدَ الخلقُ واحداً من بنيهِ   وأضاعَ القريضُ خيرَ حماتِهْ
شاعرٌ، كان يرقصُ الدهرُ أحياناً،   ويبكي حيناً على نغماتِهْ
ذهبَ الساحرونَ والسحرُ باقٍ   في عيونِ المها وفي كلماتِهْ

. . .

منشئٌ رقَّ لفظهُ كسجاياهُ   ورفَّ الجمالُ في جنباتِهْ
توّجَ «الضادَ» بالملاحةِ حتى   خالها القومُ بعضَ مخترعاتِهْ
نقلَ الأعصرَ الخوالي إلينا   في كتابٍ، لله من معجزاتِهْ
فرأينا «هوميرَ» ينشدُ فينا   شعرهُ مثلَ واحدٍ من رواتِهْ

. . .

كانَ في دولةِ السيوفِ وزيراً   ألمعياً، ودولةَ في ذاتِهْ
ما بكينا الرفاتَ لمّا بكينا   كم رفاتٍ في الأرضِ مثلُ رفاتِهْ

بل بكينا لأننا قد حُرمنا — بالمتونِ المزيدَ مِنْ آياتِـهْ
راعنا أنْ يزولَ عنّا ، وإنّا — لم نُطِقْ أنْ نطيلَ حبلَ حياتِهْ
قد أردنا حملَ البشائرِ للعلمِ — فكنّا لأهلِهِ من نعاتِهْ
إنَّ في «مصرَ» و«الشآمِ» دويّاً — ما سمعناهُ قبلَ يومِ وفاتِهْ
وأحسَّ «العراقُ» حين أتاهُ — النعيُ طعمَ الرّدى بماءِ «فراتِهْ»
و«بلبنانَ» رجفـةٌ تتمشى — في ينابيعِهِ وفي نَسَماتِهْ
فتَحَ الموتُ حين أغمضَ عينيهِ — عيونَ الورَى على حسنَاتِهْ
فهو ماضٍ لهُ جلالةُ آتٍ — من فتوحاتِهِ ومن غَزَواتِهْ
والفتى العبقريُّ يولدُ إذْ يولدُ — في مهدِهِ ، ويومَ ممـاتِهْ

ليس السر في السنوات

قُلْ للذي أحصى السنينَ مفاخراً — يا صاحِ ليسَ السرُّ في السنواتِ
لكنهُ في المرءِ كيفَ يعيشُها — في يقظةٍ ، أم في عميقِ سُباتِ
قُمْ عُدَّ آلافَ السنينِ على الحَصَى — أتعدُّ شبهَ فضيلةٍ لحصاةِ ؟
خيرٌ من الفلَواتِ ، لا حدَّ لها ، — روضٌ أغنُّ يقاسُ بالخطواتِ
كُنْ زهرةً ، أو نغمةً في زهرةٍ ، — فالمجدُ للأزهارِ والنغماتِ
تمشي الشهورُ على الورودِ ضحوكةً — وتنامُ في الأشواكِ مكتئباتِ
وتموتُ ذي للعُقْمِ قبلَ مماتِها — وتعيشُ تلكَ الدهرَ في ساعاتِ
تُحصى على أهلِ الحياةِ دقائقٌ — والدهرُ لا يُحصى على الأمواتِ
ألعمرُ ، إلّا بالمآثرِ ، فارغٌ — كالبيتِ مهجوراً وكالموماتِ
جَعَلَ السنينَ مجيدةً وجميلةً — ما في مَطاويها مِنَ الحسناتِ

فقيد الوطنية

رثى بها فقيد المنابر الطيب الذكر المغفور له مصطفى باشا كامل .

بكيتُ ولكنْ بالدموعِ السخينةِ   وما نفدتْ حتى بكيتُ بمهجتي
على الكاملِ الأخلاقِ والنُّبلِ مصطفى   فقد كانَ زينَ العقلِ زينَ الفتوّةِ
نعاهُ لنا الناعي فكادتْ بنا الدُّنى   تميدُ لِهولِ الخطبِ خطبِ المروءةِ
وذابتْ قلوبُ العالمينَ تلهُّفاً   وسالتْ دموعُ الحزنِ من كلِّ مقلةِ
أجلْ قد قضى في مصرَ أعظمُ كاتبٍ   فخلَّفَ في الأكبادِ أعظمَ حسرةِ
فتى وأبي لو ان في الناسِ مثلَهُ   لهانَ علينا وقعُ هذي الرزيئةِ
ولو كانَ يُفدى بالنفوسِ من الرَّدى   جعلْنا فداهُ كلَّ نفسٍ أبيةِ
فتى ماتَ غضَّ العمرِ لم يعرفِ الخنا   ولم ينطوي في نفسِهِ حبُّ ريبةِ
وقد كانَ مقداماً جريئاً ولم يكنْ   ليبغي الرَّدى غيرَ النفوسِ الجريئةِ
وكانَ جواداً لا يضنُّ بحاجةٍ   لذلكَ أعطى روحَهُ للمنيَّةِ
سلامٌ على مصرَ الأسيفةَ بعدَهُ   فقد أودعتْ آمالَهُ جوفَ حفرةِ

خطيبُ بلادِ النيلِ ما لَكَ ساكتاً   وقد كنتَ تلقي خطبةً إثرَ خطبةِ؟
تطاولتِ الأعناقُ حتى اشرأبَّتِ   فهل أنتَ مُسديها ولو بعضَ لفظةِ؟
نعمْ كنتَ لولا الموتِ فارجَ كَرْبِها   فيا للرَّدى من غاشمٍ متعنِّتِ
تفطَّرتِ الأكبادُ حزناً كأنَّما   رماكَ سهمٌ حلَّ في كلِّ مهجةِ
وما حزنتْ أمٌ لِفقدِ وحيدِها   بأعظمَ من حزني عليكَ ولوعتي
تُناديكَ مصرُ الآنَ يا خيرَ راحلٍ   ويا خيرَ من يُرجى لدفعِ المُلمَّةِ
عهدتُكَ تأبى دعوةً غيرَ دعوتي   فمالكَ تأبى (مصطفى) كلَّ دعوةِ؟
فقد تكُ رياناً فيا طولَ لهفتي   لقد كنتَ سيفي في الخطوبِ وجنَّتي
أجلْ طالما دافعتَ عن مصرَ مثلما   يدافعُ عن مأواهُ نحلُ الخليَّةِ
فأيقظتَها من رَقْدةٍ بعدَ رقدةٍ   وأنهضتَها من كبوةٍ تِلوَ كبوةِ
وقوَّيتَ في أبنائها الحبَّ نحوَها   وكنتَ لهُمْ في ذاكَ أفضلَ قدوةِ
رفعتَ لواءَ الحقِّ فوقَ ربوعِها   فضمَّ إليهِ كلَّ ذي وطنيَّةِ
لئنْ تكُ أترعتَ القلوبَ محبةً   فإنَّكَ لم تُخلَقْ لغيرِ المحبَّةِ
فنَمْ آمناً وفيتَ قومَكَ قسطَهُمْ   فيا طالما ناموا وأنتَ بيقظةِ
سيُبقي لكَ التاريخُ ذكراً مخلداً   فقدْ كنتَ خيرَ الناسِ في خيرِ أمَّةِ
عليكَ من الرحمنِ ألفُ تحيةٍ   ومن أرضِ مصرَ ألفُ ألفِ تحيَّةِ

مزح في جد

معربة

رأيتُ غلاماً مليحَ الرُّواء   تلوحُ النَّباهةُ في مُقلتِهْ
فقلتُ، تجنَّى علينا الشِّتاء   وقد نَفِدَ الفحمُ مع كثرتِهْ
فهل مِن دواءٍ لهذا البَلاء   لديكَ؟ أجابَ، اقفلوا المدرسهْ!
فقلتُ، صغيرٌ يحبُّ الفضاء   ويكرهُ ما ليسَ مِن فطرتِهْ!

...

وأبصرتُ لِصّاً على الزّاويهْ   كثيرَ التلفُّتِ نحو القصورْ
فقلتُ، منازلُنا خاليهْ   مِن الفحمِ، والفحمُ نارٌ ونورْ
فقالَ، لياليكمُ الدّاجيهْ   تزولُ ولكن بهدمِ السّجونْ!
فقلتُ، شقيٌّ مِنَ الأشقياء   يُجاهدُ مِن أجلِ حرّيّتِهْ!

...

وعُدتُ إلى رجلٍ موسرٍ   لهُ شُهرةٌ ولهُ منزلهْ
فقلتُ، سريٌّ كلامُ السَّري   إذا وقعَ النّاسُ في مُشكلهْ

فما هو رأيُك؟ قالَ اقتصِرْ   مَعَ البردِ لا تنفعُ الوَلولهْ!
فأدركتُ أنَّ فتى الأغنياء   ضنينٌ يخافُ على ثروتِهْ!

...

وأبصرتُ شخصاً كثيرَ الحذرْ   فرُحتُ أبثُّ لهُ لوعتي
فحملقَ حتى رأيتُ الشّررْ   يطيرُ سِراعاً إلى مُهجتي
وصاحَ، هي الحربُ أصلُ الخطرْ   فرُدُّوا الحُسامَ إلى غِمدِهِ!
فقلتُ، عدوٌّ قليلُ الحياء   يُحاذرُ شرّاً على دولتِهْ!

...

(هيوز) وقد كانَ قبلاً مُرشَّحْ   شكوتُ إليهِ انقلابَ الأمورْ
ولمّا طلبتُ الجوابَ تنحنحْ   وقالَ: الحِلاقةُ أصلُ الشّرورْ
فقلتُ: المُرشّحُ لا شكَّ يمزحْ   وما زلتُ في حيرةٍ واضطرابْ
كطيّارةٍ في مَهبِّ الهواء   إلى أنْ نظرتُ إلى لحيتِهْ!

•

عبد الله البستاني

يا ميتاً فيه جمالُ الحياة ... ما حازَ منكَ اللحدُ إلّا الرفاتْ
أنتَ الفتى الباقي بآثارهِ ... ما أنتَ بالمرء إذا ماتَ ماتْ !
وكيفَ يمتدُّ إليكَ الردى ... وذاتُكَ الحسناء في ألفِ ذاتْ ؟
إذا اختفى في الوَرْدِ لونُ الضحى ... فالذنبُ ذنبُ الأعينِ الناظراتْ
يصوّحُ الزهرُ ويبقى الشّذى ... ويذهبُ المرءُ وتبقى الصفاتْ

***

يا نائماً أغفى عن التُرّهاتِ ... إنّي وجدتُ الموتَ في التُرّهاتْ
أإنْ مضى الشيءُ نقولُ انقضى ... إذن ، فمِنْ أينَ تجيءُ الحياةْ ؟
أليس دنيا الصحوِ دنيا الكرى ... ومثلُ ظلّ العيشِ ظلُّ المماتْ ؟
تقسّمُ الأشياءَ أفهامُنا ... وليستِ النخلةُ إلّا النواةْ
وفي الغدِ الأمسُ ولكنّنا ... للجهلِ قلنا الدهرُ ماضٍ وآتْ
بعضُ الردى فيهِ نجاةُ الفتى ... وربّما كانَ الردى في النجاةْ

***

يا فُرويّاً عظمتْ نفسُهُ ... حتى ترضّتها نفوسُ العُتاةْ
وحسدتْهُ الصيدُ في كوخِهِ ... وحسدتْ قريتَهُ العاصماتْ
تلكَ السجايا لم تزلْ بيننا ... ساطعةً كالأنجمِ الزاهراتْ
وعلمُكَ الزاخرُ باقٍ لنا ... ما بقيتْ في الأرضِ أمُّ اللغاتْ
في أنفسِ الناسِ وألبابِهِم ... وفي بطونِ السيَرِ الخالداتْ
وفي تلاميذكَ أهلِ الحجى ... والأدبِ الجمّ الجليلِ السّماتْ
من شاعرٍ كالرّوضِ أشعارُهُ ... تسمعُ همْسَ الحبِّ فيهِ الفتاةْ
وساحرٍ تحسبُ أقوالَهُ ... مسروقةً من مُقَلِ الغانياتْ
وكاتبٍ تشرقُ ألفاظُهُ ... كالدُّرَرِ المختارةِ المنتقاةْ
وصُحْبٍ أخلاقهمْ كالمنى ... يروونَ عنكَ الحِكَمَ الغالياتْ
لم يخترمْكَ الموتُ يا دوحةً ... باسقةً قد خلّفتْ باسقاتْ

***

يا حجّةَ الفصحى ودهقانَها ... وبحرَها الطامي وشيخَ الثقاتْ
«الضادُ» من بعدِكَ في مأتمٍ ... حاضرُها والأعصرُ الغابراتْ
فليسَ في لبنانَ غيرُ الأسى ... وليسَ غيرُ الحُزْنِ حولَ الفراتْ
فمن يعزّي جبلاً واحداً ... عزّى الرواسي في جميعِ الجهاتْ

***

سلختَها سبعينَ من أجلِها   في عالمِ الطِّرسِ ودنيا الدواةْ
ألناسُ من حولِكَ في قيلِهِمْ   وأنتَ كالعابدِ وقتَ الصلاةْ
غنيتَ بالضادِ وأسرارِها   عنِ الغواني والطِّلا والسقاةْ
أنتَ الذي ودَّ إليها الصبا   إنَّ الهوى يجترحُ المعجزاتْ
فاختلجتْ أوضاعُها بالمنى   وجالَ ماءُ الحسنِ في المفرداتْ
ولهجتْ باسمِكَ آفاقُها   وردَّدتْهُ في البوادي الحداةْ
وحنَّتِ النُّوقُ إلى سمعِهِ   وطربتْ من ذِكرِهِ الصافناتْ
فيا شباباً يطلبونَ العُلى   إنَّ العُلى للأنفسِ الماضياتْ
ويا فقيراً يتمنّى الغنى   هلّا تمنَّيتَ غنى المكرماتْ ؟
ويا سراةً يبذلونَ اللُّهى   هذا فقيرٌ كانَ يعطي السراةْ !
من روحِهِ لا فيضِ أموالِهِ   إنَّ هباتِ الروحِ أسمى الهباتْ
لا يقتضي قاصدَهُ حمدَهُ   ويشكرُ العافي الذي قالَ : هاتْ
وإنْ مضى العافونَ عن بابِهِ   سارتْ عطاياهُ وراءَ العفاةْ
فكانَ كالكوكبِ يمشي على   ضيائِهِ الرَّكْبُ وذئبُ الفلاةْ
وكانَ كالغيثِ إذا ما همى   أصابَ في الأرضِ الحصى والنباتْ
وكانَ كاليُنبوعِ يرتادُهُ   ذو الشيمِ الحسنى وذو السيِّئاتْ

وكالفضاءِ الرَّحبِ في حلمِهِ   يضطربُ البازي به والقطاةْ

***

يا صاحبَ «البستانِ» نمْ آمناً   فإنَّ في الموتِ زوالَ الشكاةْ
ما غابَ ماءٌ غابَ تحتَ الثَّرى   فأطلعَ النبتَ وأحيا المواتْ

الشباب أبو المعجزات

سلامٌ عليكُمْ رجالَ الوفاء … وألفُ سلامٍ على الوافياتْ
ويا فَرَحَ القلبِ بالناشئينَ … ففي هؤلاء جمالُ الحيـاةْ
هُمُ الزّهرُ في الأرضِ إذ لا زهورٌ … وشهبٌ إذ الشهبُ مستخفياتْ
إذا أنا أكبرتُ شأنَ الشبابِ … فإنَّ الشبابَ أبو المعجزاتْ
حصونُ البلادِ وأسوارُها … إذا نامَ حرّاسُها والحمـاةْ
غَدٌ لهم وغَدٌ فيهمُ … فيا أمسُ فاخرْ بمـا هو آتْ
ويا حبّذا الأمهاتُ اللواتي … يلدنَ النوابغَ والنابغـاتْ
فَكَمْ خلدتْ أمةٌ بيراعٍ … وكَمْ نشأتْ أمةٌ في دواةْ

***

أنا شاعرٌ أبداً تائـقٌ … إلى الحسنِ في الناسِ والكائناتْ
أحبُّ الزهورَ، وأهوى الطيورَ، … وأعشقُ ثرثرةَ الساقياتْ
ورَقْصَ الأشعةِ فوقَ الروابي، … وضحكَ الجداولِ والقهقهاتْ

تطالعُ عينايَ في ذا المكانِ … روائعَ فاتنةً ساحراتْ
كأنَّ الفضاء وفيه الطيورُ … بحورٌ بهـا سفنٌ سابحاتْ
كأنَّ الزهورَ ترقرقُ فيهـا … سقيطَ الندى أعينٌ باكياتْ
ومن بلبلٍ ساجعٍ مُغنٍّ، … ومن زهرةٍ غضةٍ لفتـاةْ

***

فما أجملَ الصيفَ في الخلواتِ … وأروعَ آيايـهِ البيناتْ
نضا السترَ عن حسناتِ الوجودِ … وكانتْ كأسرارِهِ المُضمراتْ
وأحيا رغائبنا الذابلاتِ … فعاشتْ وكانتْ كأرضٍ مَواتْ
ففي الأرضِ سحرٌ، وفي الجوِّ عطرٌ، … فيا للكريمِ، ويا للهِباتْ
أمامكمُ العيشُ حرٌّ رغيدٌ … ألا فاغنموا العيشَ قبلَ الفواتْ

وقال ينقد أحدهم

لما سكتَ حسبتَ أنكَ ناجِ   هيهاتِ إنّي كالمنونِ أفاجي
تاللهِ تطمعُ بالسلامةِ بعدمـــا   ألقاكَ جهلُكَ في يدِ الأمواجِ
إن كانَ داخلَكَ الغرورُ فإنّهُ   ما انفكَّ في البُسطاءِ والسُّذاجِ
إني أنا الأسدُ الهصورُ بسالةً   ويلٌ لقومٍ حاولوا إحراجي
حاولتَ أن تهتاجني عن مربضي   لتنالَ ذكراً، خبتَ يا ذا الرّاجي
عارٌ إذا أنشبتُ فيكَ مخالبي   إذ ليسَ من خُلقي افتراسُ نِعاجِ
وظننتَ أنّكَ بالغٌ شأوي إذا   رمتَ القريضَ فما ظفرتَ بحاجِ
إنّ القوافي كالخرائدِ منعة   وتفوقها في نبذِ كلِّ مُداجِ
والشعرُ تاجٌ لو علمتَ ولم تكنْ   ممّن يليقُ بحملِ هذا التاجِ
حذها مثقفة إذا وقعتْ على   جبلٍ لأزعجَ أيّما إزعاجِ
أنا خيرُ من قالَ القوافيَ مادحاً   أنا خيرُ من قالَ القوافيَ هاجي
قد كنتُ أزهدُ في الهجاءِ لو لم يكنْ   لكَ يا مريضَ العجبِ، خيرُ علاجِ

لارفعن للسما احتجاجي

جــاءَ الشتاءُ جيئةَ المفاجي
كأنّمـــا قد كانَ في الرّتاجِ
فجمدَ السائلُ في الزُّجـــاجِ
واكتستِ الأرضُ بمثلِ العاجِ
فامتنعَ المرعى على النّعاجِ
وامتنعَ الحبُّ على الدّجـــاجِ
وامتنعَ السيرُ على النّواجي
رُبَّ جــوادٍ لاحقٍ هملاجِ
معوّدِ الإلجـــامِ والإسراجِ
والوخدِ والذّميلِ والإمعاجِ (١)
أصبحَ مثلَ العرقِ في اختلاجِ
منعرجاً في غيرِ ذي انعراجِ

(١) الوخد والذميل والامعاج : ضروب من عدو الابل .

لو هاجهُ الرّاكبُ بالكرباجِ
لما مشى بهِ سوى اعوجاجِ
لولا الجليدُ طارَ بالمهتاجِ
مثلَ البُراقِ بفتى المعراجِ
وحطّهُ والشمسَ في الأبراجِ
لكنّهُ منهُ على الزجاجِ

★

وأمسكَ الناسُ عن اللجاجِ
أمـا ترى نداءهمْ تناجي
كأنما الجوعُ في الملاجي
على «منى» مواكبُ الحجّاجِ
ورغبَ المثري عن الديباجِ
إلى اللباسِ الخشنِ النسّاجِ
وكان أن جيءَ لهُ بالتاجِ
أعرضَ عنهُ وارمَ الأوداجِ

★

وانقبضَ النهرُ عن الهيـاجِ

وكانَ مثلَ الزاخرِ العجّاجِ
يصارعُ الأمواجَ بالأمواجِ
يا مسبحَ الإوزّ والدرّاجِ
كيفَ غدوتَ موطىءَ الأحداجِ
ومعبرَ الخلقِ إلى الخراجِ

★

مـالي والصبحُ على انبلاجِ
أخبطُ كالعشواءِ في الدياجي
إذا أردتُ السيرَ في منهاجي
طـالَ عثاري فيه وانزلاجي
كأنني أمشي على زجـاجِ
محتذياً بالزئبقِ الرجراجِ
خُيّلَ لي ، لشدّةِ ارتجاجي
أنّ دمي يرتجُّ في أوشاجي
أرى الدنى ضيّقةَ الفجـاجِ
ولم تضِق ، لكنّما احتياجي
إلى طريقٍ واضحِ الثّجـاجِ

أسلكُ فيهِ غيرَ ما انزعاجِ
وَحاجتي بالكوكبِ الوهّاجِ
كحاجةِ الأعمى الى سراجِ !
إنْ لجَّ هذا القرُّ في إحراجي
لأرْفعَنَّ للسّما احتجاجي !

الغراب والبلبل

قالَ الغرابُ وقد رأى كَلَفَ الورى   وهيامَهُمْ بالبلبلِ الصدّاحِ
لِمَ لا تهيمُ بي المسامعُ مثلَهُ   ما الفرقُ بين جناحِهِ وجناحي ؟
إني أشدُّ قوًى وأمضى مخلباً   فعلامَ نامَ الناسُ عن تمداحي ؟

***

أمفرّقَ الأحبابِ عن أحبابهمْ   ومكدّرَ اللذاتِ والأفراحِ
كم في السوائلِ من شبيهٍ بالطلا   فعلامَ ليس لها مُقامُ الراحِ ؟
ليسَ الحظوظُ من الجسوم وشكلِها   ألسرُّ كلُّ السرِّ في الأرواحِ
والصوتُ من نِعَمِ السماءِ ولم تكنْ   ترضى السما إلا عن الصدّاحِ
حَكَمَ القضاءُ فإنْ نقمتَ على القضا   فاضربْ بعنقِكَ مُديةَ الجراحِ

السر في الارواح

قالَ الغُرابُ وَقَدْ رأى كَلَفَ الوَرَى
وَهُيامَهُمْ بالبُلْبُلِ الصَدّاحِ
لِمَ لا تَهيمُ بيَ المَسامِعُ مِثْلَهُ
مَا الفَرْقُ بينَ جَناحِهِ وَجَناحي ؟
إني أشَدُّ قوىً وأمضى مِخْلَباً
فعلى مَ نامَ النّاسُ عَنْ تَمْداحي ؟
أمُفرِّقَ الأحبابِ عَنْ أحبابِهِمْ
وَمُكَدّرَ اللّذّاتِ والأفراحِ
كَمْ في السّوائِلِ مِنْ شَبيهٍ للطِّلا
فعلى مَ لَيْسَ لها مَقامُ الرّاحِ ؟
لَيسَ الحُظُوظُ من الجُسُومِ وشَكلِها

السِرُّ كلُّ السِرِّ في الأرْوَاحِ
والصَوْتُ مِنْ نِعَمِ السَماءِ ولم تكنْ
تَرْضى السّما إلّا عَنِ الصّلاحِ
حَكَمَ القَضاءُ فإنْ نَقَمْتَ على القضَا
فاضْرِبْ بِعُنقِكَ مُدْيَةَ الذّبّاحِ !!!

***

الكأس الباقية

دمعة على جبران جبران

أيُّها الشاعرُ الذي كان يَشدو　　بينَ صاحٍ من الجمالِ وضاحِكْ
جَلَّ أنْ يصيدكَ القدرُ الأعـ　　ـمى ويَمشي مقصُّهُ في جناحِكْ
موكبُ الشعرِ تائهٌ في فضاءٍ　　ليسَ فيهِ سوى حطيمِ سلاحِكْ
والبساتينُ ، والبلابلُ فيهـا　　تتغنّى ، حزينةٌ لرواحِكْ
قنعتْ بالنواحِ منك فلمّـا　　زالَ عاشتْ بذكرياتِ نواحِكْ
والدجى ، والنجومُ تسطعُ فيه ،　　واجمٌ حسرةً على مصباحِكْ
تلمسُ العينُ أينما لمستهُ　　جمراتِ التياحِنا والتياحِكْ
قد تولّت جلالةُ السحرِ عنهُ　　واضمحلَّتْ مذ صارَ غيرَ وشاحِكْ

***

هبطتْ ربّةُ الحياةِ لكي تـ　　ـسكبَ خمرَ الجمالِ في أقداحِكْ

فإذا أنتَ في السريرِ مسجّى　　صامتٌ كالطيوفِ في ألواحِكْ
فتولّتْ مذعورةً تلطِمُ الوجـ　　ـهَ وتبكيكَ ، يا قتيلَ سماحِكْ !
سبقتْها إلاهةُ الموتِ كي تحـ　　ـظى ولو باليسيرِ من أفراحِكْ
ويحها ! ويحَ حبِّها من أثيمٍ　　طَرَدَتْنا ولم تُقِمْ في ساحِكْ
أيبستْ روضَكَ الجميلَ ، ولم تظـ　　ـفرْ بغيرِ التُّرابِ من أدواحِكْ
ذهبَ الموتُ بالكؤوسِ جميعاً　　غيرَ كأسٍ ملأتَها من جراحِكْ

هاتها

هاتِها في القدحِ	نسمةً في شبحِ
هاتِها فالنَّفسُ في	حاجةٍ للفرحِ
واسقِنيها كوثراً	وعليَّ اقترحِ
إن تكن قد حُرِّمتْ	فعلى المستقبحِ
هيَ في سُفرتِها	طلعةُ المفتضحِ
وهي في خمرتِها	كخديدِ المستحي
وهيَ في شِدّتِها	ثورةُ المجترحِ
وهي في رقّتِها	خاطرٌ لم يَلُحِ
أتراها شفقاً	كُلِّلتْ بالصُّبحِ
أم هيَ الوجناتُ قد	ذُوِّبتْ في قدحِ ؟

الى الفاتح (١)

«ألانبي»، لو طبعنا الشمسَ يوماً	وقلّدناكها سيفاً صفيحا
ورصّعناهُ بالشُّهبِ الدّراري	لما زدناك فخراً أو مديحا
لأنّكَ أشجعُ الأبطالِ طُرّاً	وأعظمُ قادةِ الدُّنيا فتوحا
إذا ما مرَّ ذكرُكَ بينَ قومٍ	رأيتَ أشدَّهم عِيّاً فصيحا
فكمْ داويتَ سوريّاً مريضاً	وكم أسقمتَ تركيّاً صحيحا
وكم قد صُنتَ في بيروتَ عِرضاً	وكم أمّنتَ في الشّهباءِ روحا
غضبتَ على «الهلالِ» فخرَّ ذعراً	ولُحتَ لهُ فحاذرَ أن يلوحا
عصفتَ بهمْ فأمسى كلُّ حصنٍ	لخيلِ النّصرِ ميداناً فسيحا
مشتْ بكَ همّةٌ فوقَ الثُّريّا	فزلزلتِ المعاقلَ والصّروحا
منَ الوادي إلى صحراءِ سينا	إلى أنْ زرتَ ذيّالكَ الضّريحا
إلى بحرِ الجليلِ إلى دمشقٍ	تُطاردُ دونكَ التّركيَّ القبيحا
فكانَ الجندُ كلُّهمُ يشوعاً	وكانتْ كلُّ سوريّا «أريحا»
فإنْ يكنِ المسيحُ فدى البرايا	فإنّكَ أنتَ أنقذتَ المسيحا !

---

(١) يبدو ان هذه القصيدة قد قالها الشاعر وهو في أوج غمرة الفرح للخلاص من نير الاتراك، دون ان يحسب للمستقبل حساباً !...

دودة وبلبل

نظرتْ دودةٌ تدبُّ على الأرضِ   إلى بُلبلٍ يطيرُ ويصدحْ
فمضتْ تشتكي إلى الوَرَقِ الساقطِ   في الحقلِ أنهـا لم تُجنَّحْ
فأتتْ نمـلةٌ إليها وقالتْ   اقنعي واسكُني فما لكِ أصلَحْ
ما تمنيتِ إذ تمنّيتِ إلا   أنْ تصيري طيراً يُصادُ ويذْبَحْ
فالزمي الأرضَ فهي أحنى على الدودِ ،
وخـلّي الكلامَ فالصمتُ أربحْ .

•

أنا وهي

جلَسْتُ إليها والترامُ بنا يعدو   إلى حيثُ لا واشٍ هناكَ ولا ضدُّ
قدِ انتظمتْ هذي القطاراتُ في الثّرَى   كأنَّ الثّرَى جيدٌ وتلكَ لها عِقْدُ
بلى ، هيَ عِقْدٌ بل عقودٌ ، ألا ترى   على الأرضِ أسلاكاً تدورُ فتمتدُّ؟
يَسيرُ فَيطوي الأرضَ طياً كأنّما   دواليبُهُ أيدي ، كأنَّ الثّرَى بُرْدُ
فكالطودِ إلّا أنَّ ذيّاكَ ثابتٌ   وكالريحِ إلّا أنَّ هاتيكَ لا تبدو
توَهَّمتُهُ من سُرعةِ السَّيْرِ راكداً   وأنَّ الدُّنى فيمنْ على ظهرِها تعدو
تحومُ عليهِ المركباتُ كأنّهُ   مليكٌ وتلكَ المركباتُ لهُ جُندُ
تُقصِّرُ عنهُ الريحُ إما تَسابقا   فكيفَ تُجاريهِ المطهّمةُ الجُرْدُ؟
على أنه في كفِّ عبدٍ زمامُهُ   فيا مَنْ رأى مَلِكاً يُصرِّفُهُ عَبْدُ
كأني بهِ ، يا صاحِ ، دارَ ضيافةٍ   يُغادِرُهُ وَفْدٌ ويقْصِدُهُ وَفْدُ
خلَوْتُ بمن أهوى بهِ رَغْمَ عاذلي   ولَمْ يكُ غيرُ القربِ لي ولها قَصْدُ
فسارَ بنا في الأرضِ وَخْداً كأنما   درَى أنَّ ما نَبغيهِ منهُ هوَ الوَخْدُ
فـما راعني واللهِ إلا وقوفُهُ   فقد كنتُ أخشى أنْ يفاجئنا وَغْدُ

ولمّا انتهى من سَيْرِهِ وإذا بنا   على شاطىءِ البَحْرِ الذي ما لَهُ حدُّ
هُناكَ وَقفْنا والشِّفاهُ صَوامِتٌ   كأَنَّ بنا عِيّاً وليسَ بنا وَجْدُ
سَكَتْنا ولكنَّ العيونَ نواطِقٌ   أرقُّ حديثٍ ما العيونُ بِهِ تَشْدو
سَكِرْنا ولا خمرٌ ولكنَّهُ الهوى
إذا اشتدَّ في قَلْبِ امرىءٍ ضَعُفَ الرشْدُ

فقالتْ وفي أجفانِها الدمعُ جائِلٌ   وقد عادَ مُصفَرّاً على خدِّها الوَرْدُ
ألا حبّذا، يا صاحبي، الموتُ هنا   إذا لم يَكُنْ من تَذَوُّقِ الرَّدى بُدُّ
فيالَكَ من فكرٍ مُخيفٍ وهائلٍ   ويا لَكَ من مرآى يَرِقُّ لَهُ الصَّلْدُ
فقلتُ لها إني محبٌّ لكلِّ ما   تُحبين، إن السمَّ منكِ هُوَ الشَّهْدُ
فقالتْ أمن أجلي تحنُّ إلى الردى ؟   دعِ الهَزْلَ إنَّ المرءَ حليتُهُ الجِدُّ
فقلتُ لها لو كنتُ في الخُلْدِ راتعاً   ولستِ معي واللهِ ما سرَّني الخُلْدُ
فإن لم يَكُنْ مَهْدُ إليكِ يضمُّني   فيا حبّذا، يا هندُ، لو ضمَّنا لَحْدُ
فقالتْ لَعَمْرِ الحقِّ إنكَ صادِقٌ   قَدُمْتَ على وُدٍّ ودامَ لكَ الوُدُّ
فلو لم أكنْ من قبلُ أعشقُ حُسْنَها   لهمتُ بها واللهِ حسبيَ من بَعْدُ

•

حكاية قديمة

وَزَنْبَتَ أمريكيّةٍ خلتُ وِدَّها   يدومُ، ولكنْ ما لِغَانِيَةٍ وُدُّ
صَبَوتُ إلى هِندٍ فلمَّا رأيتُها   سَلَوتُ بِها هِنداً وَما صَنَعَت هِندُ
وأَوحَت لها عَيناي أنَّ صَبابَةً   تَلَجْلَجُ في صَدري وأَحذرُ أن تَبدو
فألقتْ إلى أترابِها وتَبَسَّمَتْ   أعِيٌّ سُكوتُ الصَّبِّ أم صَمتُهُ عَمْدُ؟
فقلتُ سلامُ اللهِ، قالتْ وبِرُّهُ،   فقلتُ: أهزلٌ ذلكَ القولُ أم جِدُّ
وأمسكتُ أنفاسي وأرهفتُ مِسمعي
ففي نَفسي جَزْرٌ وفي مِسمَعي مَدُّ
فقالتْ وَدِدْنا لو عرفْنا مَنِ الفتى   وَما يَبتَغيهِ؟ قلتُ ما يَبتَغي العَبْدُ؟
لَهُ كَبِدٌ حرّى، وقلبٌ مُتَيَّمٌ   غَلِطتُ، فَالصَّبُّ قلبٌ ولا كَبِدُ
قتيلٌ ولكنْ ثوبُهُ كَفَنٌ لَهُ   وكُلُّ مَكانٍ يَستَريحُ بِهِ لَحدُ
فإنْ لمْ يكنْ مِن نظرةٍ تَرأَبُ الحشا   فَرُدّي عَلَيهِ قَلبَهُ وَبِهِ زُهدُ
فَضَرَّجَ خدَّيها احمرارٌ كأنَّما   تَصاعَدَ مِن قلبي إلى خدِّها الوَجدُ

وَقَرَّبَها مِنّي وَقَرَّبَني الهَوى إلى أنْ ظَنَنّا أنَّنا واحِدٌ فَرْدُ
وَكَهْرَبَ رُوحَينا فَلَمّا تَنَهَّدَتْ تَنَهَّدتُ حَتّى كادَ صَدري يَنهَدُّ
وَكانَ حَديثٌ خِلتُ أنّي حَفِظتُهُ فَأذهَلَني عَنهُ الّذي كانَ مِن بَعدُ

*

أمَرتُ فُؤادي أن يُطيعَ فُؤادَها فَيَبكي كَما تَبكي وَتَشدو كَما تَشدو
وَقُلتُ لِنَفسي هذهِ مُنتَهى المُنى وَهذا مَجالُ الشُّكرِ إن فاتَكِ الحَمدُ
فَإن تَرغَبي عَنها، وَفيكِ بَقيَّةٌ، فَما أنتِ نَفسي إنَّما أنتِ لي ضِدُّ
وَمَرَّتْ لَيالٍ وَالمُنى تَجذِبُ المُنى وَقَلبي، كَما شاءَتْ، يَلينُ وَيَشتَدُّ
تَروحُ وَنَغدو وَاللَّيالي كَأنَّها وُقوفٌ لأمرٍ لا تَروحُ وَلا تَغدو
وَما زِلتُ تَستَخفي عَلَيَّ عُيوبُها إلى أن تَوَلّى الغَيُّ وَاتَّضَحَ الرُّشدُ
رَأى الدَّهرُ سَدّاً حَولَ قَلبي وَقَلبِها فَما زالَ حَتّى صارَ بَينَهُما السَّدُّ
خُدِعتُ بِها وَالحُرُّ سَهلٌ خِداعُهُ فَلا طالِعي يُمنٌ وَلا كَوكَبي سَعدُ
وَكُنّا تَعاهَدنا عَلى المَوتِ في الهَوى فَما لَبِثَتْ إلّا كَما يَلبَثُ الوَردُ
كَأنّي ما أصفَيْتُ ثَغري بِثَغرِها وَلا باتَ زَندي وَهوَ في جيدِها عِقدُ

وَلَمْ نَشتَمِلْ بِالليلِ وَالحَيُّ نائِمٌ وَلَمْ نَستَتِرْ بِالرَّوضِ وَالليلُ مُمتَدُّ
وَلا هَزَّنا شَدوُ الحَمائِمِ في الضُّحى وَلا ضَمَّنا بَيتٌ وَلَم يَحوِنا بُردُ

*

أإنْ لاحَ في فَودَيَّ القَتيرُ(١) نَكَرتِني أيُزهَدُ في الصَّمصامِ إنْ خَلِقَ الغِمدُ
لَئِن كانَ لَونُ الشَّعرِ ما تَعشَقينَهُ فَدُمْ أبيَضاً ما دُمتَ يا شَعرِيَ الجَعدُ
فَلا تَشمَتي مِنّي فَلَستُ بِآمِنٍ وَلا تَزهَدي فيهِ، فَلَيسَ بِهِ زُهدُ
هُوَ الفاتِحُ الغازي الّذي لا تَرُدُّهُ عَنِ الفاتِحِ الغازي قِلاعٌ وَلا جُندُ
فَلَو كانَ غَيرَ الشَّيبِ عَنّي صَرَفتُهُ وَلكِنَّ حُكمَ اللهِ لَيسَ لَهُ رَدُّ
وَإنْ تُعرِضي عَن مَفرِقي وَهوَ أبيَضٌ فَيا طالَما قَبَّلتِهِ وَهوَ مُسوَدُّ
شَفى اللهُ نَفسي لا شَفى اللهُ نَفسَها وَلا غابَ عَن أجفانِها الدَّمعُ وَالسُّهدُ
فَلا ثَغرُها دُرٌّ وَلا أقحُوانَةٌ وَلا دَمعُها طَلٌّ وَلا ريقُها شَهدُ

(١) القتير: الشيب أو أوائله.

وَلا قَدُّها غُصْنٌ ولا خَيزُرانةٌ   وَلا خَصْرُها غَورٌ ولا رِدفُها نَجدُ
وَلا وَجهُها شَمسٌ ولا شَعرُها دُجى   وَلا صَدُّها حَرٌّ وَلا وَصلُها بَرْدُ
أُحِبُّ إلى نفسي الرَّدى مِنْ لِقائِها   وَأَجمَلُ في عَينيَّ مِنْ وَجهِها القِردُ
فإنْ تَلبَسِ الثوبَ الّذي أنا لابسٌ   قَدَدْتُ بِكَفّي الثوبَ مِنْ قَبلِ يَنقَدُّ
وإنْ تَقرُبِ الدّارَ التي أنا ساكِنٌ   هَجَرتُ مَغانيها ولو أنّها الخُلدُ
فإنْ كانَ غيري لَمْ يَزَلْ دينُهُ الهوى
فإني، ولا أخشى المَلامةَ، مُرتَدُّ!!

المدخل

وقعتْ نحلةٌ على الأقحوانِ   فـإذا في القفيرِ شُهْدُ
ومَشَتْ بعدَها على الأغصانِ   دودةٌ فالغصونُ جُردُ
وهَمى الغيثُ في الحقولِ ففيها   شجرٌ وارفٌ وزهـرُ
وأصابَ الرمالَ كي يحييها   فهما ميْتٌ وقـبرُ
أنا غيثٌ، فإن وجدتُكَ حقلاً   فـأنا العشبُ والشجرْ
غيرَ أني، إذا لقيتُكَ رملاً،   لستُ شيئاً حتى المطرْ

وأنا الأقحوانُ سيَّانَ عندي   عشتُ يوماً أو بعضَ يومِ
لا أبالي الفناءَ إنْ كانَ مجدي   في فنائي أو مجـدُ قومي
إنْ تَغِبْ في فراشةٍ ألواني   فـأنا زهرةٌ تطيرُ
وإذا انحلَّ في الشُعاعِ كياني   فـأنا في الضُحى عبيرُ
جنِّبوني الفناءَ في الديدانِ   إنهُ المصرعُ الكريهْ
وانعدامُ الأريجِ والألوانِ   واندثارٌ لا مجـدَ فيهْ
كنْ شعاعاً يبينُ فيه كيـاني   لا ظلاماً ولا رَغـامْ
ولأعِشْ في الشعاعِ بضعَ ثوانِ   فهيَ خيرٌ من ألفِ عـامْ

الزمان

يمشي الزمانُ بمَنْ ترقَّبَ حاجةً ... متثاقلاً كالخائفِ المتردِّدِ

حتى ليحسبَهُ أسيراً موثقاً ... ويراهُ أبطأَ من كسيحٍ مُقعدِ

ويخالُ حاجتَهُ التي يصبو لها ... في دارةِ الجوزاءِ أو في الفرقدِ

ويكونُ ما يرجوهُ زورةَ صاحبٍ ... ويكونُ أبعدَ ما يرجّي في غدِ

★

فإذا تولّى النفسَ خوفٌ في الضحى ... من واقبٍ تحتَ الدجى أو معتدِ

طارتْ بها خيلُ الزمانِ ونوقُهُ ... نحوَ الزمانِ المدلهمِّ الأسودِ

فكأنها محمولةٌ في بارقٍ، ... أو عارضٍ، أو عاصفٍ في فدفدِ

★

ويكونُ أقصرَ ما يكونُ إذا الفتى ... مدّتْ لهُ الدنيا يدَ المتودّدِ

فتوسطَ اللذّاتِ غيرَ منفَّرٍ ... وتوسدَ الأحلامَ غيرَ منكَّدِ

فإذا لذيذُ العيشِ نغبةُ طائرٍ ... وإذا طويلُ الدهرِ خطرةُ مرودِ

★

وإذا الفتى لبسَ الأسى ومشى بهِ ... فكأنما قد قالَ للزمنِ اقعدِ

فإذا الثواني أشهرٌ، وإذا الدقا ... ئقُ أعصرٌ، والحزنُ شيءٌ سرمدي

وإذا صباحُ أخي الأسى أو ليلُهُ ... متجددٌ مع همِّهِ المتجدِّدِ

قهرَ الورى وأذلّهمْ أنَّ الورى ... متعللٌ، أو طامعٌ، أو مجتدِ

جعلوا رغائبَهُمْ قياسَ زمانِهمْ ... والدهرُ أكبرُ أنْ يقاسَ بمقصدِ

وقتلتُ في نفسي الرغائبَ والمنى ... فقهرتُهُ بتجرُّدي وتوحُّدي

يشكو الذي يشكو السهادَ جفونُهُ ... لو لم يكنْ ذا ناظرٍ لم يسهدِ

إنْ كانَ شيءٌ للنفادِ أعدَّهُ ... فيما انقضى ومضى وإنْ لم ينفدِ

ما أنْ رأيتُ الكحلَ في حدقِ المهى ... إلّا لمحتُ الدودَ خلفَ الأثمدِ

من ليسَ يضحكُ والصباحُ مُوَرَّدٌ ... لم يكتئبْ والصبحُ غيرُ موردِ

سيّانِ أحلامٌ أراها في الكرى ... عندي، وأشياءٌ بها اشتملتْ يدي

أنا في الزمانِ كموجةٍ في زاخرٍ ... أنا فيهِ إنْ يُزبِدْ وإنْ لم يُزبدِ

مهما تلاطمَ فهوَ ليس بمغرقي ،   أو مخرجي منه ، ولا بمبدِّدي

هيهاتِ ما أرجو ولا أخشى غداً   هل أرتجي وأخافُ ما لم يوجدِ

والأمسُ فيَّ فكيفَ أحسبهُ انتهى   أفما رأيتُ الأصلَ في الفرعِ الندي ؟

قبلُ كبعدِ حالةٌ وهميّةٌ   أمسي أنا ، يومي أنا ، وأنا غدي

•

الفيلسوف المجنح

يا أيها الشادي المغرِّدُ في الضحى   أهواكَ إن تُنشِدْ وإنْ لم تنشدِ

الفنُّ فيكَ سجيَّةٌ لا صَنعةٌ   والحبُّ عندكَ كالطبيعةِ سرمدي

فإذا سكتَّ فأنتَ لحنٌ طائرٌ   وإذا نطقتَ فأنتَ غيرُ مقلَّدِ

للهِ دركَ شاعراً لا ينتهي   من جيِّدٍ إلا صَبا للأجودِ

مرَحُ الأزهارِ في غنائِكَ والشَّذى   وطلاقةُ الغُدرانِ والفجرِ الندي

وكأنَّ زوركَ فيهِ ألفُ كنجةٍ   وكأنَّ صدركَ فيهِ ألفُ مردَّدِ

كم زهرةٍ في السفحِ خادرةِ المنى   سكنتْ على يأسٍ سكونَ الجلمدِ

غنَّيتها ، فاستيقظتْ وترنّحتْ   وتألقتْ كالكوكبِ المتوقّدِ

وجرى الهوى فيها وشاعَ بشاشةً   مَنْ لَمْ يُحبَّ فإنهُ لم يولدِ

وكأنني بكَ حينَ تهتِفُ قائلٌ   للزهرِ : إنَّ الحسنَ غيرُ مخلَّدِ

فاستنفدي في الحبِّ أيامَ الصِّبا   واسترشديهِ فهوَ أصدقُ مرشدِ

واستشهدي فيهِ ، فَمِنْ سُخرِ القضا   أنْ لا تذوقيهِ وأن تُستشهَدي !

***

يا فيلسوفاً قد تلاقى عندهُ — طَرَبُ الخليِّ وَحرقةُ المتوجّدِ
رَفعَ الربيعُ لكَ الأرائكَ في الربى — وكسا حواشيها برودَ زبرجدِ
أنتَ المليكُ لهُ الضياءُ مَقاصِرٌ — وتعيشُ عيشَ الناسكِ المتزهدِ
مستوفزاً فوقَ الثرى، متنقلاً — في الدَّوحِ من غصنٍ لغصنٍ أملدِ
متزوّداً من كلِّ حسنٍ لمحةً — شأنَ المحبِّ الثائرِ المتمرّدِ
وإذا ظفرتَ بنفحةٍ وبقطرةٍ — فلقد ظفرتَ بروضةٍ وبموردِ
تشدو وتبهتُ حائراً متردداً — حتى كأنكَ حين تُعطي تجتدي
وتمدُّ صوتكَ في الفضا متلهفاً — في ذلّةِ المسترحمِ المستنجدِ
فكأنما لـــكَ موطنٌ ضيّعتهُ — خلفَ الكواكبِ في الزمانِ الأبعدِ
وَطنٌ جميلٌ كنتَ فيهِ سيّداً — فمضى ودامَ عليكَ همُّ السيّدِ
طوردْتَ عنه إلى الحضيضِ فَلَمْ تزلْ — متلفتاً كالخائفِ المتشردِ
يبدو لعينكَ في العتيقِ خيالُهُ — وتراهُ في ورَقِ الغصونِ الميّدِ
صورٌ معدّدةٌ لغيرِ حقيقةٍ — كالآلِ لاحَ لمعطّشٍ في فدفدِ
فتهمُّ أنْ تدنو إليهِ وتنثني — حتى كأنكَ خائفٌ أنْ تهتدي

وكأنه حُلْمٌ يصحُّ مَعَ الكرى — فإنِ انتهيتَ من الكرى يتبدّدِ
كم ذا تفتّشُ في السفوحِ وفي الذُّرى — عنقاءَ أقربُ منهُ للمتصيّدِ

***

يا أيها الشادي المغرّدُ في الضحى — أهواكَ إن تنشدْ وإنْ لم تنشدِ
طوباكَ إنكَ لا تفكّرُ في غدٍ — بدءُ الكآبةِ أنْ تفكّرَ في غدِ
إنْ كنتَ قد ضيّعتَ إلفكَ إنني — أبكي على إلفي الذي لم يوجدِ

عيد النهى

في اليوبيل الذهبي لمجلة المقتطف

قُلْ للحمائمِ في ضفافِ الوادي ... يا ليتكنَّ على شَغافِ فؤادي
لترينَ كيفَ تبعثرتْ أحلامُهُ ... وجرتْ بِهِ الآلامُ خيلَ طِرادِ
كانت تشعُّ على جوانبِه المنى ... فخَبَتْ وبدَّلَ جمرَها برمادِ
أسعدْنَه ، فعسى يخفُّ ولوعُهُ ... إنَّ الشجيَّ أحقُّ بالإسعادِ
ذَهَبَ الصبا وبقيتِ في حسراتِهِ ... ليتَ الأسى مثلَ الصبا لنفادِ
إنَّ الشبابَ هو الغنى فإذا مضى ... وأقتَ لا ينفكُّ فقرُكَ بادي
أمسيتُ أنظرُ في الحياةِ فلا أرى ... إلا سواداً آخذاً بسوادِ
ألقى الصباحَ فلا يطولُ تأمُّلي ... حتى يحـولُ شعاعُهُ لصعادِ
وإذا تقابلني النجومُ تخاوصتْ ... فكأنما هي أعينُ الحسّادِ
ما ثَمَّ من ذكرى إذا خطرتْ على ... قلبي استراحَ سوى خيالِ الوادي
أفلا تزالُ الشمسُ تصبغُ وجهَهُ ... بالوَرْسِ (١) آونةً وبالفِرْصادِ (٢)؟

---

(١) نبات كالسمسم يصبغ به .
(٢) الفرصاد : صبغ أحمر .

أفلا يزالُ يذوبُ في أمواجِهِ ... ذَهَبُ الأصيلِ وفضّةُ الآرادِ ؟
لهفي إذا وَرَدَ الرفاقُ عشيّةً ... وذكرتُ أني لستُ في الوُرّادِ
وإذا الحمامُ شدا وصفّقَ موجُهُ ... أنْ لا أصفّقَ للحمامِ الشادي
وإذا النخيلُ تطاولتْ أظلالُهُ ... أنْ لا يكونَ مظلّتي ووسادي
وإذا الكواكبُ رصّعتْ آفاقَهُ ... أنْ لا يكونَ لرعيهنَّ سُهادي
ذُقتُ الهوى وعرفتُهُ في شطِّهِ ... إنَّ الهوى للمرءِ كالميلادِ
لا تدركُ الأكبادُ سرَّ وجودِها ... حتى يجولَ الحبُّ في الأكبادِ
ما عشتَ لم يمسسْ جوانحَكَ الهوى ... لم تدرِ ما في العيشِ من أمجادِ
لا تبصرُ العينُ الرياضَ وحليَها ... إلا على ضوءِ الصباحِ الهادي

. . .

وطنانِ أشوقُ ما أكونُ إليهما ... مصرُ التي أحببتُها وبلادي
ومواطنُ الأرواحِ يعظُمُ شأنُها ... في النفسِ فوقَ مواطنِ الأجسادِ
حرصي على حبِّ «الكنانةِ» دونَهُ ... حرصُ السجينِ على بقايا الزادِ
بَلَدَ الجمـالِ خفيّهِ وجليّهِ ... والفنِّ من مُستطرفٍ وتلادِ
عَرَضَتْ مواكبَها الشعوبُ فلم أجدْ ... إلا بمصرَ نضارةَ الآبادِ
كم من دفينٍ في ثراها لم يزلْ ... كالحيِّ ذا مقةٍ وذا أحقـادِ
ومشيَّدٍ ، للناسِ إذ يغشونَهُ ... من كلِّ أرضٍ خشيةُ العبّادِ

عاشَ الجدودُ وأثّلوا ما أثّلوا   واليومَ ينبعثونَ في الأحفادِ
ألمسبغينَ على النوابغِ فضلَهمْ   كالفجرِ منبسطاً على الأطوادِ
أبناءَ مصرَ الناهضينَ تحيةً   كوَدادكمْ إنْ لم أقلْ كوِدادي

. . .

من شاعرٍ كلفٍ بكمْ وبأرضكمْ   أبداً يُوالي فيكمْ ويُعادي
إنْ تُكرموا شيخَ الصحافةِ تُكرموا
أسنى الكواكبِ في سماءِ الضادِ
خلعَ الشبابُ على الكنانةِ مُطرفاً   هوَ كالربيعِ على ربىً ووهادِ
ما زالَ يقحمُ في الجهالةِ نورُهُ   حتى تقاصرَ ليلُها المتمادي
بصحيفةٍ نورُ العيونِ سوادُها   وبياضُها مِنْ ناصعِ الأجيادِ
ينبوعُ معرفةٍ، وهيكلُ حكمةٍ،   ووعاءُ آدابٍ، وكنزُ رشادِ
أغلى المواهبِ والعقولِ رأيتها   سكنتْ قصورَ مهارقٍ ومدادِ
ذِكرُ المجاهدِ في الحقيقةِ خالدٌ   ويزولُ ربُّ السيفِ والأجنادِ
لولا جبابرةُ القرائحِ لم يَبِنْ   في الأرضِ ذِكرُ جبابرِ القوّادِ
مـــا ذلّلتْ سُبُلَ المعالي أمةٌ   إلا بقوةِ مُصلحٍ أو هادي

. . .

«صرّوف» يسألكَ الأنامُ تقلْ لهمْ   كم في حياتكَ ساعةَ استشهادِ

طلعَ القنوطُ عليكَ من أغوارهِ   فرددتَ طائرَهُ وجأشُكَ هادي
وتمضيتَ تستقصي الحياةَ وسرَّها   في كلِّ عاقلةٍ وكلِّ جمـادِ
حتى لكدتَ تحسُّ هاجسةَ المنى   وتبينُ كم في النفسِ من أضدادِ
أنتَ الذي أسرتْ به عزماتُهُ   والدربُ غامضةٌ على الروّادِ
والليلُ آفاتٌ على أغوارِها   والهولُ أنجـادٌ على الأنجادِ
إنَّ الحقائقَ أنتَ ناشرُ بندها   في حينِ كانَ العلـمُ كالإلحادِ
والعقلُ في الشرقيِّ من أوهامهِ   كالنسرِ في الأرهاقِ والاصفادِ
تشقى متى تشقى الشعوبُ بجهلها   وتعزُّ حينَ تعزُّ بالأفرادِ
ألساهرينَ الليلَ مثلَ نجومهِ   فكأنهمْ للدهرِ بالمرصادِ
ألباذلينَ نفوسَهمْ لم يسألوا   وعلى النفوسِ مدارعُ الفولادِ
خفضوا جناحهمُ وتحتَ برودِهمْ   هِممُ الملوكِ وصولةُ المرّادِ
همُ الزمانُ قديمُهُ وحديثُهُ   ما الناسُ في الدنيا سوى الآحادِ
إنَّ الأنامَ على اختلافِ عصورهم   جعلوا لأهلِ العلمِ صدرَ النادي
ما العيدُ للخمسينَ بل عيدُ النهى   وفنونِهِ والخـاطرِ الوقّادِ

عبدُ الحصافةِ والصحافةِ كلِّها   في مصرَ ، في بيروتَ ، في بغدادِ
ما العيشُ بالأعوامِ كم من حقبةٍ   كالمحوِ في عمرِ السوادِ العادي
ألعمرُ ، إلا بالمآثرِ ، فارغٌ   كالقفرِ طالَ بهِ عناءُ الحادي
وسوى حياةِ العبقريِّ نقيسها   فتقاسُ بالآجالِ والآمادِ

يا بلادي

مثلما يكمنُ اللظى في الرمادِ   هكذا الحبُّ كامنٌ في فؤادي
لستُ مغرى بشادنٍ أو شادِ   أنا صبٌّ متيَّمٌ ببلادي
يا بلادي عليكِ ألفُ تحيَّةْ

. . .

هو حبٌّ لا ينتهي والمنيَّةْ   لا ولا يضمحلُّ والأمنيَّةْ
كانَ قبلي وقبلَ نفسي الشجيَّةْ   كانَ من قبلُ في حشا الأزليَّةْ
وسيبقى ما دامتِ الأبديَّةْ !

. . .

خلِّياني من ذكرِ ليلى وهندِ   واصرفاني عن كلِّ قدٍّ وخدِّ
كلُّ حسناءَ غيرُ حسناءَ عندي   أو أرى وجدَها بقومي كوجدي
لا حياةَ في الحبِّ والوطنيَّةْ

. . .

كلُّ شيءٍ في هذهِ الكائناتِ   من جمادٍ وعالمٍ ونباتِ

وقديمٍ وحاضرٍ أو آتٍ صائرٌ للزوالِ أو للمماتِ

غيرَ شوقي إليكِ يا سوريّهْ

. . .

أنتِ ما دمتِ في الحياةِ حياتي فإذا ما رجعتُ للظلماتِ

واستحالتْ جوارحي ذرّاتٍ فلتقلْ كلُّ ذرّةٍ من رفاتي

عاشَ لبنانُ ولتعشْ سوريّهْ

. . .

ولتقلْ كلُّ نفحةٍ من ندٍّ ولتقلْ كلُّ دمعةٍ في خدٍّ

ولتقلْ كلُّ غرسةٍ فوقَ لحدي وليقلْ كلُّ شاعرٍ من بعدي

عاشَ لبنانُ ولتعشْ سوريّهْ

. . .

ربَّ ليلٍ سهرتُهُ للصباحِ حائراً بينَ عسكرِ الأشباحِ

ليسَ لي مؤنسٌ سوى مصباحي ونداءِ الملّاحِ للملّاحِ

وصراخِ الزوارقِ الليليّهْ

. . .

تتهادى في السيرِ كالملكاتِ أو كسربِ النعامِ في الفلواتِ

مقبلاتٍ في النهرِ أو رائحاتِ تحتَ ضوءِ الكواكبِ الزاهراتِ

فوقَ ماءٍ كالبردةِ اليمنيّهْ

. . .

تتمشّى في صفحتيهِ النسائمْ فترى الموجَ فيهِ مثلَ الأراقمْ

يتلوّى ، وتارةً كالمعاصمْ كلِفَ الماءُ بالنسيمِ الهائمْ

ليتني كنتُ نسمةً شرقيّهْ

. . .

هجعَ الناسُ كلُّهمْ في المدينهْ وتولّتْ على «نيويورك» السكينهْ

وجفوني ، بغمضِها ، مستهينهْ لا ترى غيرَ طيفِ تلكَ الحزينهْ

لستُ أعني بها سوى سوريّهْ

. . .

ذاكَ ليلٌ قطعتُهُ أتأمّلْ رسمَها الصامتَ الذي ليسَ يعقلْ

وجناني معْ خاطري تتنقّلْ بينَ هذا الحمى وذاكَ المنزلْ

والرُّبى والخمائلِ السندسيّهْ

. . .

ههنا رسمُ منزلٍ أشتهيهِ ههنا مربعٌ أحبُّ ذويهِ

هُنا رَسْمُ مَعهدٍ كُنتُ فيهِ   مَعْ رِفاقي أجُرُّ ذيلَ التِّيهِ
في الضُّحى، في الأصيلِ، بَعدَ العَشيّةْ

. . .

كَمْ تطلّعتُ في الخطوطِ الدّقيقةْ   ولثمتُ الطّرائقَ المنسوقةْ
قَنِعتْ بالخيالِ نفسي المشوقةْ   ليتَ هذا الخيالَ كانَ حقيقةْ
فعذابي في لذّتي الوهميّةْ

. . .

يا رُسوماً قد هيّجتْ أشواقي   طالَ، لو تعلمينَ، عهدُ الفِراقِ
أينَ تلكَ الكؤوسُ، أينَ السّاقي؟   أينَ تلكَ الأيّامُ، أينَ رِفاقي؟
أينَ أحلامي الحِسانُ البهيّةْ؟

. . .

يا رُسومَ الرُّبوعِ والأصحابِ   بحياتي عليكِ بالأحبابِ
أخبريني فقد عرفتِ مُصابي   أترى عائدٌ زمانُ التّصابي
أم طوتْهُ عنّا يدُ الأبديّةْ؟

. . .

سبقتني دُنيا أرادتْ لحاقي   فأنا الآنَ آخِرٌ في السِّباقِ

نِصفُ عُمري يرثيهِ نصفي الباقي   كَرِثاءِ الأوراقِ للأوراقِ
يبسَ الأصلُ والفروعُ نديّةْ

. . .

ما تراني إذا تغنّى الشّادي   ومضى في الغناءِ والإنشادِ
فأطارَ الأسى عنِ الأكبادِ   أحسبُ العودَ في يديهِ ينادي
أيُّها القومُ أنقذوا سوريّةْ!

. . .

وإذا ما جلستُ تحتَ الظّلامِ   أرقبُ البدرَ من وراءِ الغمامِ
رنَّ في مسمعي فهزَّ عظامي   شِبهُ صوتٍ يقولُ للنُّوّامِ
أيُّها القومُ أنقذوا سوريّةْ!

. . .

وإذا ما ذهبتُ في البستانِ   بينَ زهرِ الخزامِ والأقحوانِ
أسمعُ الهاتفاتِ في الأفنانِ   قائلاتٍ وللكلامِ معانِ
أيُّها القومُ أنقذوا سوريّةْ!

. . .

وإذا ما وقفتُ عندَ الغديرِ   حيثُ تمشي الطُّيورُ خلفَ الطُّيورِ

خِلتُ أنَّ الأمواهَ ذاتَ الخريرِ   قائلاتٌ معي لأهلِ الشُّعُورِ
أيُّها القومُ أنقِذوا سوريّة

. . .

ما لقومي وقد دهتها الدّواهي   بالذي يُطفِىءُ النُّجُومَ الزّواهي
وبثيرُ (الحماسَ) في الأمواه   قعدوا بينَ ذاهلٍ أو لاه
أينَ أينَ الحفيظةُ العربيّة؟

. . .

هي أمٌّ لكمْ وأنتمْ بنوها   حفِظتْ عهدَكم فلا تنكروها
أنتمْ أهلُها وأنتمْ ذووهـا   لا تُعينوا بالصَّمتِ مَن ظلَمُوها
ذاكَ عارٌ على النُّفوسِ الأبيّة

. . .

كنْ نبيّاً يستنزلُ الإلهاما   كنْ مليكاً يُصدِرُ الأحكاما
كنْ غنيّاً، كنْ قائداً، كنْ إماما   كنْ حياةً، كنْ غبطةً، كنْ سلاما
لستَ مني أو تعشقَ الحُرّيّة!!!

شوقٌ يروحُ معَ الزّمانِ ويغتدي   والشّوقُ، إنْ جدّدتَهُ يتجدّدِ
دعْ عنكَ نُصحي بالتّبلُّدِ ساعةً   يا صاحِ، قد ذهبَ الأسى بتبلُّدي
ما زادَ في أسفِ الحزينِ وشجوهِ   شيءٌ كقولكَ للحزينِ تجلَّدِ
ما زلتُ أعصيهِ إلى أن هاجني   ذِكرُ الحِمى فعصيتُ كلَّ مُفنِّدِ
وأطارَ عن جفني الكرى وأطارني   عن مرقدي مشيُ الهمومِ بمرقدي
في جُنحِ ليلٍ مثلِ حظّي حالكٍ   كالبحرِ ساجٍ... مُقفرٍ كالفدفدِ
أقبلتُ أنظرُ في النّجومِ مُصعِّداً   عيني بينَ مُصوِّبٍ ومُصعِّدِ
أو واجفٍ أو راجفٍ مُترجرجٍ   أو نافرٍ أو حائرٍ مُتردّدِ
يمشينَ في هذا الفضاءِ وفوقهُ   وكأنّما يمشينَ فوقَ الأكبُدِ
والبدرُ مُنبعِثُ الشُّعاعِ لطيفُهُ   صافٍ كذهنِ الشّاعرِ المتوقّدِ
ما زالَ ينفذُ في الدُّجى حتّى استوى   فيهِ، فيا لكَ أبيضاً في أسودِ
والشُّهبُ تلمعُ في الرّقيعِ كأنّها   أحلامُ أرواحِ الصِّغارِ الهُجّدِ
ينظُرْنَ عن كثبٍ إليهِ خِلسةً   نظرَ المِلاحِ إلى الغريرِ الأمردِ
فعجبتُ ممّنْ نامَ ملءَ جفونهِ   والكونُ يشهدُ مثلَ هذا المشهدِ

وَرأيتُني فوقَ الغمامِ مُحلِّقاً ... في الأُفقِ ما بينَ السُّها والفرقدِ
فسمعتُ صوتاً مِن بعيدٍ قائلاً ... يا أيُّها السّاري مكانَكَ تُحمَدِ
ما دُمتَ في الدُّنيا فلا تزهدْ بها ... فأخو الزّهادةِ ميّتٌ لم يُلحَدِ
لا تقنطنَّ مِنَ النّجاحِ لعثرةٍ ... ما لا يُنالُ اليومَ يُدرَكُ في غدِ
كَمْ آكلٍ ثمراً سقاهُ غيرُهُ ... دَمَهُ، وكَمْ مِنْ زارعٍ لَمْ يحصدِ
لو كانَ يحصدُ زرعَهُ كلُّ امرىءٍ ... لم تُخلَقِ الدُّنيا ولَمْ تتجدّدِ
بالذكرِ يحيا المرءُ بعدَ مماتِهِ ... فانهضْ إلى الذكرِ الجميلِ وخلّدِ
فلئنْ وُلِدتَ ومُتَّ غيرَ مخلِّدٍ ... أثراً فأنتَ كأنّما لم تُولَدِ
حتّامَ في لا شيءَ يقتتلُ الورى ... إنَّ الحِمامَ على الجميعِ بمرصدِ
طاشَتْ حلومُ المالكينَ، فذاهلٌ ... لا يستفيقُ، وحائرٌ لا يهتدي
وأفقتُ، إذ قطعَ الكلامَ مُكلِّمي ... فنظرتُني فإذا أنا لم أصعدِ

. . .

ما للكواكبِ لا تنامُ ولا تني ... قد طالَ سُهدكِ يا كواكبُ فارقدي
كَمْ تنظرينَ إلى الثّرى مِن حالقٍ ... ما في الثّرى لأخي الأسى مِن مُسعِدِ
أوَ ما تريني عندما اشتدَّ الدُّجى ... واشتدَّ دائي نامَ عني عُوَّدي
حتّى لقدْ كادَ القريضُ يعقُّني ... ويَصونُ عنّي ماءَهُ وأنا الصّدي
أمسي أهمُّ بهِ ويظلَعُ خاطري ... فكأنَّما أنا ماتحٌ مِن جلمدِ

لا تسأليني لِمْ سَهِدتُ فإنّني ... لو كانَ في وسعي الكرى لم أسهدِ
صرفَتْ يدُ البلوى يدي عَن أمرِها ... ما خِلتُ أمري قطُّ يخرجُ مِن يدي
في أضلعي نارٌ أذابَتْ أضلعي ... ومشَتْ إلى كبدي ولمّا تَخمدِ
أخشى على الأحشاءِ مِن كتمانِها ... وأخافُ أن أشكو فيشمَتَ حُسَّدي

. . .

ومليحةٍ لا هندُ مِن أسمائِها ... كلّا، وليسَتْ كالحِسانِ الخُرَّدِ
نشزَ الجواري والإماءُ تمرّدتْ ... ودنتْ فلَمْ تنشزْ ولم تتمرّدِ
في النّفسِ منها ما بها مِن دهرِها ... أزكى السّلامِ عليكِ أرضَ الموعدِ
يا ليتَ شعري كَمْ أقولُ لها انهضي ... وتقولُ أحداثُ الزّمانِ لها اقعدي
ليسَ الذي لاقتهُ هيّناً إنّما ... حملُ الأذى هيّنٌ على المتعوِّدِ!

مرآة الغرب

في سنتها التاسعة عشرة

سَلامٌ عليها طِفلةً وفَتيَّةً   كزهرِ الرُّبى البسّامِ باكَرَهُ القطرُ
كَعابٌ تلاقى الحُسنُ والفضلُ عِندها   كما يَلتقي في الصَّفحةِ السَّطرُ والسَّطرُ
لها صَولةُ الأبطالِ إن حَمِسَ الوَغى   وفيها حَياءُ البِكرِ عمّا بهِ وِزرُ
وفيها مِنَ الشَّيخِ الحكيمِ وَقارُهُ   وفيها مِنَ الخُودِ المَلاحةُ والطُّهرُ
ألا إنَّ حُسناً لا يُرافِقُهُ النُّهى   وإنْ دامَ يوماً لا يَدومُ لهُ قَدْرُ

. . .

هي الرَّوضُ فيهِ النَّبتُ والنَّدُّ والنَّدى   وفيهِ الشَّوادي المُطرِباتُكَ والزَّهرُ
هي الشَّمسُ تبدو كلَّ يومٍ جديدةً   يَروحُ بها لَيلٌ ويأتي بها فَجرُ
لِكلِّ فَتاةٍ خِدرُها وسِوارُها   ولكنَّ هذي كلُّ قلبٍ لها خِدرُ

يُريدُ سَناها الطَّيُّ والنَّشرُ رَونقاً   ويُخلِقُ حتّى المُصحفَ الطَّيُّ والنَّشرُ
أنيسُ الفتى إنْ غابَ عنهُ أنيسُهُ   وأنجمُهُ إنْ غابَتِ الأنجمُ الزُّهرُ
وَسِفرٌ تَلذُّ المرءَ مُحتَوياتُهُ   إذا لم يكن في البيتِ ناسٌ ولا سِفرُ
إذا رَضِيتْ فالنُّورُ في كلماتِها   وإنْ غَضِبَتْ فهيَ الأسِنَّةُ والجَمرُ
وفي كلِّ حربٍ يَعقِدُ الحقُّ فوقَها   أكاليلَ نَصرٍ يَشتَهي مِثلَها البَدرُ
ولا غَروَ إن عزَّتْ وهانَ خُصومُها   فَلِلحقِّ، مهما جَعجعَ الباطِلُ، النَّصرُ
فكم مُرجِفٍ أغراهُ فيها سكوتُها   فلمّا أهابَتْ كادَ يَقتلُهُ الذُّعرُ
وكم كاشِحٍ غاوٍ أرادَ بها الأذى   ثَنى طَرفَهُ عنها وفي نَفسِهِ الضُّرُّ
لها في رُبوعِ الشَّرقِ جَيشٌ عَرمرمٌ   وأعوانُها في الغَربِ لَيسَ لهم حَصرُ
ولو كانَ في المِرّيخِ أرضٌ وأُمّةٌ   لكانَ لها في أرضِهِ عَسكرٌ مَجْرُ
لِتَسحبْ ذُيولَ الفخرِ تيهاً فَوحدَها   يَحقُّ لها مِن بينِ أترابِها الفَخرُ
ولا غَروَ إن أهدى لها الشِّعرُ وحيَهُ   فيا طالَما سارَتْ وسارَ بها الشِّعرُ
ولا غَروَ إن صُغنا لها النَّثرَ حِليةً   «ففي عُنُقِ الحسناءِ يُستَحسَنُ الدُّرُّ»
وإنْ يَكنِ الأحرارُ مِنْ نُصَرائِها   فكم نَصَرَ الأحرارَ صاحِبُها الحُرُّ
أديبٌ عَفيفٌ قلبُهُ ويَراعُهُ   بَغيضٌ إليهِ الطَّيشُ والفُحشُ والهُجرُ

ثمانٍ وعشرٍ وهو يخدمُ قومَهُ ... ألا حبّذا تلكَ الثماني والعشرُ

ففي العشرِ لم يجهرْ بشكوى لسانُهُ ... وفي اليسرِ لم يلعبْ بأعطافِهِ الكِبرُ

وشرُّ المزايا أن يصيبكَ حادثٌ ... وتجهرَ بالشكوى وفي وسعِكَ الصبرُ

أهذا كمن يمشي ويضحي معربداً ... وقدّامَهُ طبلٌ ومنْ خلفِهِ زمرُ؟

أهذا كمغتابٍ يروحُ ويغتدي ... وفي نطقِهِ شرٌّ وفي صمتِهِ شرُّ؟

أهذا كمفطورٍ على الشرّ والأذى ... أحاديثُهُ نكرٌ وأعمالُهُ نكرُ؟

أهذا كأفعى همُّها نفثُ سُمّها ... ونهشُ الذي تلقى ولو أنّهُ صخرُ

أكمن يمشي إلى الوزرِ عامداً ... ويضحكُ مختالاً إذا مسَّهُ الوزرُ؟

أهذا الذي قد حاربَ المكرَ جهدَهُ ... كمن شابَ فوداهُ وديدنُهُ المكرُ؟

إذا الدهرُ لم يعرفْ لكلٍّ مكانَهُ

إذنْ قلْ لأهلِ الدهرِ قد فسدَ الدهرُ

الغدير الطموح

قالَ الغديرُ لنفسِهِ ... يا ليتني نهرٌ كبيرْ

مثلُ الفراتِ العذبِ أو ... كالنيلِ ذي الفيضِ الغزيرْ

تجري السفائنُ موقراتٍ ... فيهِ بالرّزقِ الوفيرْ

هيهاتَ يرضى بالحقيرِ ... من المنى إلّا الحقيرْ

وانسابَ نحو النهرِ لا ... يلوي على المرجِ النضيرْ

حتى إذا ما جاءهُ ... غَلَبَ الهديرُ على الخريرْ

الدمعة الخرساء

سمعتُ عويلَ النائحاتِ عشيةً ... في الحيِّ يبتعثُ الأسى ويثيرُ
يَبْكِينَ في جُنحِ الظلامِ صبيةً ... إنَّ البكاءَ على الشبابِ مريرُ
فتجهّمتْ وتلفّتتْ مرتاعةً ... كالظبيِ أيقنَ أنـــهُ مأسورُ
وتحيّرتْ في مقلتيها دمعةٌ ... خرساءُ لا تَهمي وليسَ تغورُ
فكأنها بطلٌ تكنّفَهُ العدى ... بسيوفهم وحسامُهُ مكسورُ
وجمتْ، فأمسى كلُّ شيءٍ واجماً ... ألنورُ، والأطلالُ، والديجورُ
ألكونُ أجمعُ ذاهلٌ لذهولها ... حتى كأنَّ الأرضَ ليسَ تدورُ
لا شيءَ ممّـــا حولَنا وأمامَنا ... حَسَنٌ لديها والجمـــالُ كثيرُ
سكتَ الغديرُ كأنما التحفَ الثرى ... وسها النسيمُ كأنهُ مذعورُ
وكأنما الفلكُ المنوّرُ بلقعٌ ... والأنجمُ الزهراءُ فيهِ قبورُ
كانتْ تمازحني وتضحكُ فانتهى ... دورُ المِزاحِ فضحكُها تفكيرُ

. . .

قالتْ وقد سلخَ ابتسامتَها الأسى: ... صدقَ الذي قال ـ الحياةُ غرورُ!

أكذا نموتُ وتنقضي أحلامُنا ... في لحظةٍ، وإلى الترابِ نصيرُ؟
وتموجُ ديدانُ الثرى في أكْبُدٍ ... كانتْ تموجُ بها المُنى وتمورُ
خيرٌ إذن منّا الأُلى لم يولَدوا ... ومنَ الأنامِ جلامدٌ وصخورُ
ومنَ العيونِ مكاحِلٌ ومَراوِدٌ ... ومنَ الشفاهِ مَساحِقٌ وذُرورُ
ومنَ القلوبِ الخافقاتِ صبابةً ... قَصَبٌ لوَقعِ الريحِ فيه صفيرُ!

. . .

وتوقّفتْ فشعرتُ بعد حديثها ... أن الوجودَ مُشوّشٌ مبتورُ
ألصيفُ ينفثُ حرَّهُ من حولنا ... وأنا أحسُّ كأنني مقرورُ
ساقتْ إلى قلبي الشكوكَ فنغّصتْ ... ليلي، وليسَ معَ الشكوكِ سرورُ
وخشيتُ أنْ يغدو مع الرِّيَبِ الهوى ... كالرسمِ لا عِطرٌ وفيهِ زهورُ
وكدُميةِ المثّالِ حُسنٌ رائعٌ ... ملءَ العيونِ وليسَ ثمَّ شعورُ
فأجبتها: لِتكنْ لديدانِ الثرى ... أجسامُنا إنَّ الجسومَ قُشورُ
لا تجزعي فالموتُ ليس يَضيرُنا ... فلَنا إيابٌ بعــدَهُ ونُشورُ
إنّا سنبقى بعدَ أن يمضي الورى ... ويزولَ هذا العالمُ المنظورُ
فالحبُّ نورٌ خالدٌ متجددٌ ... لا ينطوي إلا ليسطعَ نورُ
وبنو الهوى أحلامُهم ورؤاهُمُ ... لا أعينٌ ومَراشِفٌ ونحورُ
فإذا طوَتنا الأرضُ عن أزهارها ... وخلا الدُّجى منّا وفيهِ بدورُ

فسترجعينَ خميلةً معطارةً   أنا في ذُراها بلبلٌ مسحورُ
يشدو لها ويطيرُ في جنباتها   فتَهِشُّ إذ يشدو وحين يطيرُ
أو جدولاً مُترقرقاً مترنِّماً   أنا فيهِ موجٌ ضاحكٌ وخريرُ
أو ترجعينَ فراشةً خطّارةً   أنا في جَناحيها الضحى الموشورُ
أو نسمةً أنا همسُها وحفيفُها   أبداً تطوفُ في الربى وتدورُ
تغشى الخمائلَ في الصباحِ بليلةً   وتؤوبُ حين تؤوبُ وهي عبيرُ
أو تلتقي عندَ الكثيبِ، على رضًى   وقناعةٍ، صفصافةٌ وغديرُ
تمتدُّ فيهِ وفي ثَراهُ عروقُها   ويسيلُ تحتَ فروعِها ويسيرُ
ويغوصُ فيهِ خيالُها فيلفُّهُ   ويَشِفُّ فهو المنطوي المنشورُ
يأوي إذا اشتدَّ الهجيرُ إليهما   ألناسكانِ: الظبيُ والعصفورُ
لهما سكينتُها ووارفُ ظِلِّها   والماءُ إنْ عطشا لديهِ وفيرُ
أعجوبتانِ — زبرجدٌ متهدِّلٌ   نامٍ تدفَّقَ تحتهُ البلُّورُ
لا الصبحُ بينهما يحولُ ولا الدجى   فكلاهما بكليهما مغمورُ
تتعاقبُ الأيامُ وهيَ نضيرةٌ   مخضرَّةُ الأوراقِ، وهو نميرُ
فالدهرُ أجمعهُ لديها غبطةٌ   والدهرُ أجمعهُ لديهِ حبورُ

. . .

فتبسمت وبدا الرضى في وجهها   إذ راقها التمثيلُ والصورُ

عالجتُها بالوهمِ فهي قريرةٌ   ولكم أفاقَ الموجَعَ التخديرُ
ثمَّ افترقنا ضاحكَيْنِ إلى غدٍ   والشهبُ تهمسُ فوقنا وتشيرُ
هيَ كالمسافرِ آبَ بعدَ مشقةٍ   وأنا كأني قائدٌ منصورُ
لكنني لمّا أويتُ لمضجعي   خَشُنَ الفراشُ عليَّ وهو وثيرُ
وإذا سراجي قد وهَتْ وتلجلجتْ   أنفاسُهُ فكأنهُ المصدورُ
وأجلتُ طرفي في الكتابِ فلاحَ لي   كالرسمِ مطموساً وفيه سطورُ
وشربتُ بنتَ الكرمِ أحسبُ راحتي   فيها، فطاشَ الظنُّ والتقديرُ
فكأنني فُلكٌ وهتْ أمراسها   والبحرُ يطغى حولها ويثورُ
سلبَ الفؤادَ رواهُ والجفنَ الكرى   همٌّ عرا، فكلاهما موتورُ
حامتْ على روحي الشكوكُ كأنها   وكأنهنَّ فريسةٌ وصقورُ
ولقد لجأتُ إلى الرجاءِ فعقَّني   أما الخيالُ فخائبٌ مدحورُ
يا ليلُ أينَ النورُ؟ إني تائهٌ   مُرْ يَنبثِقْ، أمْ ليسَ عندَكَ نورُ؟

. . .

«أكذا نموتُ وتنقضي أحلامُنا   في لحظةٍ وإلى الترابِ نصيرُ؟»
«خيرٌ إذن منّا الأُلى لم يولدوا   ومن الأنامِ جنادلٌ وصخورُ»

حديث موجة

قالها في حفلة تكريم سامي الشوا التي أقامتها له الجالية في مدينة نيويورك عندما زارها .

عندي لكُمْ نبأٌ عجيبٌ شيّقٌ   سأقصّهُ وعليكُمْ تفسيرهُ
إنّي رأيتُ البحرَ أخرسَ ساهياً   كالشيخِ طالَ بما مَضَى تفكيرهُ
فسألتُ نفسي حائراً متلجلجاً   يا ليتَ شِعري أينَ ضاعَ هديرهُ ؟
« بالأمسِ » قالتْ موجةٌ ثرثارةٌ   ومَضَتْ ، فأكملتِ الحديثَ صخورهُ :
بالأمسِ مرَّ بنا فتىً من قومكمْ   رقّتْ شمائلهُ ودَقَّ شعورهُ
مترنّحٌ من خمــرةٍ قدسيّةٍ   فيها الهوى وفتونهُ وفتورهُ
مترفّقٌ في مَشْيهِ يطأُ الثّرى   وكأنّما بينَ النجومِ مسيرهُ
يلهو بأوتارِ الكمَنْجةِ والدُّجى   مرخيّةٌ فوقَ العُبابِ ستورهُ
يهدي إلى الوطنِ القديمِ سلامَهُ   ويُناشدُ الوطنَ الذي سيزورهُ
فشجَا الخضمَّ نشيدهُ وهتافهُ   فنسَى ، فضاعَ هديرهُ وزئيرهُ
أعرفتموهُ ؟ .. إنّهُ هذا الفتى   هذا الذي سَحَرَ الخضمَّ مرورهُ

« داودُ » والمزمارُ في نغماتهِ   و « الموصليُّ » ، ومعبدٌ وسريرهُ
يا ضيفَنَا ، والأُنسُ أنتَ رسولهُ   وبشيرهُ ، والفنُّ أنتَ أميرهُ
لو شاعَ في الفردوسِ أنّكَ بيننا   لَمشتْ إلينا سافراتٍ حورهُ
ذَهَبَ الربيعُ وجئتنا فكأنّما   جاءَ الربيعُ زهورهُ وطيورهُ
ألفنُّ هشَّ إليكَ في أمرائهِ   وتفتّحتْ لكَ دورهُ وقصورهُ
إنْ الجواهرَ بالجواهرِ أنسُها   أمّا الترابُ فبالترابِ حبورهُ
يا شاعرَ الألحانِ إنّي شاعرٌ   أمسى ضئيلاً عندَ نوركَ نورهُ
أسمى الكلامِ الشعرُ إلّا أنّهُ   أسماهُ ما أعيا الفتى تصويرهُ
وأحبُّ أزهارِ الحدائقِ وَرْدُها   وأحبُّ من وَرْدِ الرياضِ عبيرهُ
أنتَ الفتى لكَ في النّسيمِ حفيفهُ   ولكَ الغديرُ صفاؤهُ وخريرهُ
ألقومُ صاغيةٌ إليكَ قلوبهمْ   والليلُ منصتةٌ إليكَ بدورهُ
وبهذهِ الأوتارِ سحرٌ جائلٌ   متململٌ كالوَحْيِ حانَ ظهورهُ
إنْ كنتَ لا تهتاجهُ وتثيرهُ   فمَنِ الذي يهتاجهُ ويثيرهُ ؟
دغدغْ بريشتكَ الكمنجةَ ينطلقْ   ويَدُبُّ في أرواحِنَا تأثيرهُ
وامشِ بنا في كلِّ لحنٍ فاتنٍ   كالماءِ يجري في الغصونِ طهورهُ
وأدِرْ على الجلّاسِ أكوابَ الهوى   في راحتيكَ سُلافُهُ وعصيرهُ

فيخفُّ في الرّجلِ الحليمِ وقارُهُ   ويراجعُ الشيخَ المسنَّ غرورُهُ
وتنامُ في صدرِ الشجيِّ همومُهُ   ويفيقُ في قلبِ الحزينِ سرورُهُ
هذي الجموعُ الآنَ شخصٌ واحدٌ   لكَ حكمُهُ وكما تشاءُ مصيرُهُ
إنْ شئتَ طالَ هتافُهُ ونشيدُهُ   أو شئتَ دامَ نُواحهُ وزفيرُهُ
إنّا وهبناكَ القلوبَ ولم نهبْ   إلّا الذي لكَ قبلَنا تدبيرُهُ !

شاعر الشهور

«أيارُ» ، يا شاعرَ الشهورِ   وبسمةَ الحبِّ في الدهورِ
وخالقَ الزهرِ في الروابي   وخالقَ العطرِ في الزهورِ
وباعثَ المـــاءِ ذا خريرٍ   وموجدَ السحرِ في الخريرِ
وغاسلَ الأُفقِ والدراري   والأرضِ بالنورِ والعبيرِ
لقد كسوتَ الثّرى لباساً   أجملَ عندي من الحريرِ
ما فيكَ قرٌّ ولا هجيرٌ   ذهبتَ بالقرِّ والهجيرِ
فلا ثلوجٌ على الروابي   ولا غمامٌ على البدورِ
أتيتَ فالكونُ مهرجانٌ   من اللذاذاتِ والحبورِ
أيقظتَ في الأنفسِ الأماني   والابتساماتِ في الثغورِ
وكدتَ تحيي الموتى البوالي   وتُنبتُ العشبَ في الصخورِ
وتجعلُ الشوكَ ذا أريجٍ   وتجعلُ الصخرَ ذا شعورِ
فأينما سرتُ صوتُ بُشرى   وكيفما ملتُ طيفُ نورِ
تشكو إليكَ الشتاءَ نفسي   وما جناهُ من الشرورِ
كم لذعَ الزمهريرُ جلدي   ودبَّ حتى إلى ضميري

قلدتُ بالصوفِ أتقيهِ ... فأخترقَ الصوفَ كالحريرِ
وكم ليالٍ جلستُ وحدي ... منقبضَ الصدرِ كالأسيرِ
يهتزُّ مع أنملي كتابي ... ويرجفُ الحبرُ في السطورِ
تعولُ فيها الرياحُ حولي ... كنائحاتٍ على أميرِ
والغيثُ يهمي بلا انقطاعٍ ، ... والرعدُ مستتبعُ الزئيرِ
والليلُ محلولكُ الحواشي ... وصامتُ البدءِ والأخيرِ
والشهبُ مرتاعةٌ كطيرٍ ... مختبئاتٍ من الصقورِ
في غرفتي موقدٌ صغيرٌ ... للهِ مِنْ موقدي الصغيرِ !
يكادُ ينقدُّ جانباهُ ... من شدّةِ الغيظِ لا السعيرِ
لولا لظاهُ رقصتُ فيها ... بغيرِ دُفٍّ على سريري
وساعةٍ وجهُها صفيقٌ ... كأنّهُ وجهُ مستعيرِ
أبطأَ في السيرِ عقرباها ... فأبطأَ الوقتُ في المسيرِ
حتى كأنَّ الزمانَ أعمى ... يمشي على الشوكِ في الوعورِ
كنّا طوينا المنى وقلنا : ... ما للأمانيِّ من نشورِ
فلو يزورُ الصدورَ حلمٌ ... عرّجَ منها على قبورِ
لقد تولّى الشتاءُ عنّا ... فصفّقي ، يا منى وطيري !

قتل نفسه

تأمّلَ في أمسهِ الدابرِ ... فكادَ يُجنُّ من الحاضرِ
أهاجَ التذكُّرُ أشجانَهُ ... وكَمْ للسعادةِ من ذاكرِ ؟
فتى كانَ أنعمَ من جاهلٍ ... فأصبحَ أتعسَ من شاعرِ
أضاعَ الغنى وأضاعَ الصِّحابَ ... وربَّ مريضٍ بلا زائرِ
ويا طالما أحدقوا بالفتى ... كما تُحدِقُ الجُنْدُ بالظافرِ
فلمّا انقضى مجدُهُ أعرضوا ... وما الناسُ إلا معَ القادرِ
وما الناسُ إلا عبيدُ القوي ... فكنْ ذاكَ أو كُنْ بلا شاكرِ
أشدُّ من الدّهرِ مكراً بنوهُ ... فويلٌ لمن ليسَ بالماكرِ
فكنْ بينهمْ خاتلاً غادراً ... ولا تشتكِ الغَدْرَ من غادرِ
تعيسٌ تُعانقُهُ النائباتُ ... عِناقَ الحبائلِ للطائرِ
كثيرُ الهمومِ بلا ناصرٍ ... كسيرُ الفؤادِ بلا جابرِ
قضى ليلَهُ ساهياً ساهراً ... إلى كوكبٍ مثلهُ ساهرِ
يُفتّشُ عن آمِلٍ في الثّرى ... وما كانَ في الأُفقِ بالسافرِ
وتاللهِ يُجدي فتى بائساً ... كلامُ المنجّمِ والساحرِ

ولمّـا تَوارتْ دراري السماء وغابَ الهلالُ عن الناظرِ
بكى، ثمَّ صاحَ أحتى النجومُ تَصدُّ عن الرجلِ العاثرِ ؟
إلى مَ أعانِدُ هذا الزمانَ عِنادَ السفينةِ للزاخرِ
وأدعو وما ثمَّ من سامعٍ ، وأشكو، ولكنْ إلى ساخرِ
وأرجو الوفاء وتأبى النفوسُ وأنّى الولادةُ للعـاقرِ
سئمتُ الحياةَ فليتَ الحِمامَ يُعيدُ إلى أصلِهِ سائري
فتنطلقُ النفسُ من سِجْنها ويُسجنُ تحت الثَّرى ظاهري
وزادَ سوادُ الدُّجى يأسَهُ وقد كادَ يَنفرُ عن باهرِ
فشاء التخلُّصَ من دَهرِهِ الحَزونِ، ومنْ عَيْشِهِ الحازرِ[1]
فـأغمدَ في صدرِهِ مُديَةً أشدَّ مَضاءً مِنَ الباترِ
وكمْ مثلهُ قد قَضى نحبَهُ شهيدَ التأمّلِ في الغـابرِ

•

(1) الحازر: الحامض.

بنت الدوالي

هاتَ اسْقني بالقَدحِ الكبيرِ
صَفراء لَونَ الذَّهبِ المصهورِ
كأنّها في أكؤسِ البلّور شُعلةُ نارٍ في بقايا نورِ

•

عَجِبتُ للكأسِ التي نحويها
كيفَ استقرّتْ والحياةُ فيها
لوْ لمْ يُديرْها بيننا ساقيها دارتْ على القوم بلا مُديرِ

•

هاتَ اسقنيها مِثلَ عينِ الديكِ
صافيةً تنهضُ بالصُّعلوكِ
حتّى يرى التيهَ على الملوكِ ولا يُبالي سَطوةَ الأميرِ

بِنت الدَّوالي ضَرّةُ الرُّضابِ
أختَ التَّصافي زوجَةُ السَّحابِ
أنتِ ، وإنْ لامَ الورَى شرابي   في الخالدِين : القرُّ والهجيرِ

•

أشربُها بلْ أشربُ الإكسيرا
تخلُقُ في شارِبِها السُّرورا
فقلْ لمنْ يحسَبُها غرورا   ما العيشُ إلّا ساعةَ الغرورِ

•

مسرح العشاق

مِن سِحرِ طرفِكَ مَن مُجيري   يا ضرّةَ الرَّشأ الغريرِ
جِسمٌ كخَصرِكَ في النُّحو   لِ ، ومثلُ جفنِكِ في الفتورِ
أصبحْتُ أضألَ مِن هِلا   لِ الشكِّ في عينِ البصيرِ
مَحَقَ الضَّنى جسَدي فَبِــ   ـــتُّ مِنَ الهلاكِ على شفيرِ
ومَشى الرَّدى في مُهجَتي   اللهَ في النَّفَسِ الأخيرِ
جَهِلَ النِّطاسي علّتي   للهِ مِن جَهلِ الخبيرِ
كم سامَني جَرعَ الدَّوا   ءِ وكمْ جرعْتُ مِنَ المريرِ
دَعْ ، أيُّها الآسي ، يدي   الحبُّ يُدرَكُ بالشُّعورِ
يَدري الصَّبابَةَ والهوى   مَنْ كانَ في البلوى نظيري!..

***

لو تنظرينَ إليَّ كالمَيْـ   ـتِ المُسجّى في سريري
يتهامَسُ العُوّادُ حو   لي كلّما سمِعوا زفيري
وأظنُّهُمْ قد أدركوا   لا أدركوا ما في ضميري

فأبيتُ مِن قلقي عليـــك كأنّني فوقَ السّعيرِ
وأدرتُ طرفي في الحضو رِ لعلَّ شخصكِ في الحضُورِ
فارتدَّ يعثرُ بالدُّمو عِ تعثُّرَ الشيخِ الضريرِ
قد زارني مَن لا أحبُّ(م) وأنتِ أولى أن تزوري
صدَّقتِ مـا قالَ الحوا سِدُ فيَّ مِن هُجرٍ وزورِ
وأطعتِ بي حتّى العِدى وضَنِنتِ حتّى باليسيرِ
أمّـا خيالُكِ، يا بخيلـــةُ، فهو مثلُكِ في النفورِ
روحي فداؤكِ وهيَ لو تدرينَ تُفدى بالكثيرِ
تيهي على العـاني كما تاهَ الغنيُّ على الفقيرِ
أنا لا أبالي بالمصـــير وأنتِ أدرى بالمصيرِ
أهواكِ رغمَ مُعنِّفي ويلذُّ نفسي أن تجوري
ليسَ المحِبُّ بصادقٍ حتّى يكونَ بلا عذيرِ

***

كم ليلةٍ ساهرتُ فيهـا النجمَ أحسبُهُ سميري
والشهبُ أقعدَها الونى والليلُ يمشي كالأسيرِ
أرعى البُدورَ وليسَ لي مِن حاجةٍ عندَ البُدورِ
مُتذكّراً زمنَ الصّبى زمنَ الغوايةِ والغرورِ

أيّامَ أخطُرُ في المجـا مِعِ والمعاهدِ كالأميرِ
أيّامَ أمري في يدي أيّامَ نجمي في ظهورِ
لَمَـعَ القتيرُ يلمُّني ويلُ الشبابِ مِنَ القتيرِ

***

لا بالغويرِ ولا النقـا كلَفي ولا أهلِ الغويرِ
أرضَ (الجزيرة) كيفَ حا لُكِ بعدَ وقعِ الزمهريرِ
نَزَلَ الشتاءُ فأنتِ ملـــعبُ كلِّ ساقيةٍ دبورِ
وتبدَّلتْ تلكَ العِرا صُ مِنَ النضارةِ بالدثورِ
أمسيتِ كالطَّلَلِ المحيـــلِ وكنتِ كالروضِ النضيرِ
آهاً عليكِ وآهِ كيـــفَ نأتكِ ربّاتُ الخدورِ
المائساتُ عَنِ الغصو نِ السافراتُ عَنِ البدورِ
الذاهباتُ مَـعَ النُّهو دِ الذاهباتُ معَ الصدورِ
الحاسراتُ عَنِ السوا عِدِ والترائبِ والنحورِ
القاسياتُ على القــلو بِ الجانياتُ على الخصورِ
المالكاتُ على الـلآ لىءِ في القلائدِ والثغورِ
الضاحكاتُ مِنَ الدّلا لِ اللاعباتُ مِنَ الحبورِ
الآخذاتُ قلوبَنا في زيِّ طاقاتِ الزهورِ

بيضٌ نواعمُ كالدُّمى   يرفُلنَ في حُلَلِ الحريرِ
مثلَ الحمائمِ في الوَدا   عةِ، والكواكبِ في السُّفورِ
من كلِّ ضاحكةٍ كأنْ   نَ بوجهِها وجهَ البشيرِ
أنّى أدرتَ الطّرفَ فيـــها جالَ في قمرٍ مُنيرِ

***

يا مسرحَ العشّاقِ، كم   لي فيكَ من يومٍ مَطيرِ
تنسى البريّةُ عندَهُ   يومَ الخورنقِ والسّديرِ
ولكم هبطتُكِ والحبيـــبةَ فازعينِ من الهجيرِ
في زورقٍ بينَ الزّوا   رقِ كالحمامةِ في الطّيورِ
متمهّلٍ في سيرِهِ   والماءُ يُسرعُ في المسيرِ
والشّمسُ إبّانَ الضّحى   والجوُّ صافٍ كالغديرِ
ولكم وثبنا في التّلا   لِ وكم ركضنا في الوعورِ
ولكم أصخنا للحفيـــفِ وكم شجينا بالخريرِ
ولكم جلسنا في الرّياضِ   وكم نشقنا من عبيرِ
ولكم تبرّدنا بمـــاءِ نُهيركِ الصّافي النّميرِ
طوراً ننامُ على النّبا   تِ وتارةً فوقَ الحصيرِ
لا نتّقي عينَ الرّقيـ   ـبِ ولا نُبالي بالغيورِ

فكأنّها وكأنّني الـــأبوانِ في ماضي العصورِ
حُسِدَتْ عليَّ من الإنا   ثِ كما حُسِدتُ من الذّكورِ
ظنَّ الأنامُ بنـــا الظّنو   نَ وما اجترحنا من نكيرِ
قد صانَ بُردتَها الحيا   ءُ، وصانني شرفي وخِيري

***

ومطيّةٍ رجراجةٍ   لا كالمطيّةِ والبعيرِ
مـــا تأتلي في سيرِها   صخّابةً لا من نُبورِ
تجري على أسلاكِها   جريَ الأراقمِ في الجدورِ
طوراً تُرى فوقَ الجسو   رِ وتارةً تحتَ الجسورِ
آناً على قممٍ وآ   ناً في كهوفٍ كالقبورِ
ترقى كما ترقى (المصا   عدُ) ثمّ تهبطُ كالصّخورِ
فإذا علتْ حسبَ الورى   أنّا نُصعّدُ في الأثيرِ
وإذا هوتْ من حالقٍ   هوتِ القلوبُ من الصّدورِ
والرّكبُ بينَ مصفّقٍ   ومهلّلٍ جـــذلٍ قريرِ
أو خـــائفٍ متطيّرٍ   أو صارخٍ أو مستجيرِ
هي في التّقلّبِ كالزّما   نِ وإنّما هي للسّرورِ

***

وَمُدارَةٍ في الجَــوِّ	يَحْسَبُها الجَهُولُ بلا مديرِ
لو شِئْتَ نَيْلَ النَّجمِ منها	مَــا صَبَوْتَ إلى عَسيرِ
مَشْدُودَةٍ لكِنَّها	أجرى مِنَ الفرَسِ المُغيرِ
زَفَّــافَةٍ زَفَّ الرِّئا	لِ تَسُفُّ إسفافَ النُّسُورِ
ولهــا حَفيفٌ كالرِّيا	حِ وَهَدرةٌ لا كالهديرِ
كالأرضِ في دورانِها	وَلَكَالمِظَلَّةِ في النُّشُورِ
القَومُ فيهَــا جَالِسو	نَ على مَقاعِدَ مِن وَثيرِ
وَالريحُ تَخفُقُ حَولَهُمْ	وَكَأنَّما هُمْ في قُصُورِ
وَالجَمعُ يَهتِفُ كلَّما	مَرَّتْ على الحَشْدِ الغَفيرِ

***

وَلَكَمْ تأمَّلْنــا الجُمُو	عَ تَمُوجُ كالبَحرِ الزَّخورِ
يَمْشي الخَطيرُ مَعَ الحَقِـ	ـيرِ كأنَّما هو مَعْ خَطيرِ
وَتَرى المَهــاةَ كأنَّها	لَيثٌ مَعَ اللَّيثِ الهَصُورِ
مُتوافِقُونَ على التَّبا	يُنِ كالقَبيلِ أو العَشيرِ
لا يَرهَبُونَ يَدَ الخُطو	بِ كأنَّما هُمْ خَلفَ سُورِ
يَمضي النَّهارُ وَنَحنُ نَحسَبُ	مَــا بَرِحنا في البُكُورِ
أنفَقتَ يا زَمَنَ الحُبو	رِ بِمُهجَتي مِثلَ الحَرُورِ

وَلَّتْ شُهُورٌ كُنتُ أرْ	جُو أنْ تُخَلَّدَ كالدُّهُورِ
وَأتَتْ شُهُورٌ بَعدَهَــا	سَاعَاتُها مِثْلُ الشُّهُورِ
لَيسَتْ حَياةُ المَرءِ في الدُّ	نيا سوى حُلمٍ قَصيرِ
وأرى الشَّبابَ مِنَ الحَيا	ةِ لَكَاللُّبابِ مِنَ القُشُورِ
ذَهَبَ الرَّبيعُ ذَهابَهُ	وَأتى الشِّتاءُ بلا نَذيرِ
وَتَبَدَّدَ العُشَّاقُ مِثلَ	تَبَدُّدِ الوَرَقِ النَّثيرِ
رَضِيَ المُهَيمِنُ عَنهُمُ	واللهُ يَعفو عَنْ كَثيرِ

الأسرار

يا ليتني لصٌّ لأسرقَ في الضحى سرَّ اللطافةِ في النسيمِ الساري
وأجسَّ مؤتلقَ الجمالِ بإصبعي في زرقةِ الأفقِ الجميلِ العاري
ويبينَ لي كنهُ المهابةِ في الرُّبى والسرُّ في جذلِ الغديرِ الجاري
والسحرُ في الألوانِ والأنغامِ وا لأنداءِ والأشذاءِ والأزهارِ
وبشاشةُ المرجِ الخصيبِ، ووحشةُ الوادي الكئيبِ، وصولةُ التيّارِ
وإذا الدجى أرخى عليَّ سدولَهُ أدركتُ ما في الليلِ من أسرارِ
فلكمْ نظرتُ إلى الجمالِ فخلتُهُ أدنى إلى بصري من الأشفارِ
فطلبتُهُ فـإذا المغالقُ دونَهُ وإذا هنالكَ ألفُ ألفِ ستارِ
بادٍ ويعجزُ خاطري إدراكَهُ وفتنني بالظاهرِ المتواري!

إذا

إذا جدّفتَ جوزيتَ على التجديفِ بالنّارِ
وإنْ أحببتَ عُيّرتَ من الجارةِ والجارِ
وإنْ قامرتَ أو راهنتَ في النادي أوِ الدارِ
فأنتَ الرجلُ الآثمُ عندَ الناسِ والباري

. . .

وإنْ تسكرْ لكي تنسى هموماً ذاتَ أوقارِ
خسرتَ الدينَ والدنيا ولم تربحْ سوى العارِ

. . .

وإنْ قلتَ: إذنْ فالعيشُ أوزارٌ بأوزارِ
وإنَّ الموتَ أشهى لي إذا لم أقضِ أوطاري
وأسرعتَ إلى السيفِ أوِ السمِّ أوِ النـارِ
لكي تخرجَ من دنيا ذووها غيرُ أحرارِ
فهذا المنكرُ الأعظمُ في سرٍّ وإضمارِ
إذن فاحيَ ومتْ كالناسِ عبداً غيرَ مختارِ

أم القرى*

أبصرتُها ، والشمسُ عندَ شروقِها
فرأيتُها مغمورةً بالنّـارِ
ورأيتُها عندَ الغروبِ غريقةً
في لجـةٍ من سُندُسٍ ونُضارِ
ورأيتُها تحتَ الدجى ، فرأيتُها
في بُردَتينِ : سكينةٍ ووقارِ
فتنبّهتْ في النفسِ أحلامُ الصِبى
وغرقتُ في بحرٍ من التذكارِ

. . .

نفسي لهـا من جنّةٍ خلّابةٍ
نسجتْ غلائلَها يدُ الأمطارِ
أنّى مشيتَ تشقُّ مسكاً أزفرا

(*) أو ملفرد الجميلة .

في أرضِها وسمعتَ صوتَ هزارِ

. . .

ذاتَ الجبالِ الشامخاتِ الى العُلا
يا ليتَ في أعلى جبالِكِ داري
لأرى الغزالةَ قبلَ سُكانِ الحِمى
وأعانقَ النسَماتِ في الأسحارِ
لأرى رُعاتَكِ في المُروجِ وفي الرُبى
والشاءَ سارحةً مـعَ الأبقارِ
لأرى الطيورَ الواقعاتِ على الثرى
والنحلَ حـائمةً على الأزهارِ
لأساجلَ الورقاءَ في تغريدِها
وتهزّ روحي نفخةُ المزمـارِ
لأسامرَ الأقمـارَ في أفلاكِها
تحتَ الظلامِ إذا غفا سُمّاري
لأراقبَ «الدلوارَ» في جريانِهِ
وأرى خيالَ البدرِ في «الدلوارِ»

. . .

بئسَ المدينةُ إنها سِجنُ النُّهى
وذَوِي النُّهى، وجهنَّمُ الأحرارِ
لا يملكُ الإنسانُ فيها نفسَهُ
حتّى يُرَوِّعَهُ ضَجيجُ قِطارِ
وَجدتْ بها نفسي المَفاسِدَ والأذى
في كلِّ زاويةٍ وكلِّ جِدارِ
لا يَخدَعَنَّ الناظرينَ بُروجُها
تلكَ البُروجُ مَخابِئٌ لِلعارِ
لو أنَّ حاسِدَ أهلِها لاقى الذي
لاقيتُ لَمْ يَحسُدْ سوى «بَشّارِ»
غُفرانَكَ اللّهمَّ ما أنا كافِرٌ
فلِمَ تُعذِّبُ مُهجتي بالنّارِ ؟

. . .

للهِ ما أشهى القُرى وأحبَّها
لِفتىً بَعيدِ مَطارِحِ الأفكارِ
إن شئتَ تَعرى من قُيودِكَ كلِّها
فانظُرْ إلى صَدرِ السّماءِ العاري

وامْشِ على ضوءِ الصَّباحِ، فإنْ خبا
فامْشِ على ضوءِ الهِلالِ السّاري
عِشْ في الخَلاءِ تَعِشْ خَليًّا هانئاً
كالطَّيرِ ... حُراً، كالغديرِ الجاري
عِشْ في الخَلاءِ كَما تعيشُ طيورُهُ
الحُرُّ يأبى العَيْشَ تحتَ سِتارِ !

. . .

شلّالُ «ملفِرْد» لا يقرُّ قرارُهُ
وأنا لِشَوْقي لا يَقِرُّ قَراري
فيهِ منَ السَّيفِ الصَّقيلِ بريقُهُ
ولهُ ضَجيجُ الجَحفَلِ الجَرّارِ
أبداً يَرُشُّ صخورَهُ بدُموعِهِ
أتُراهُ يَغسِلُها منَ الأوزارِ ؟
فإذا تطايرَ ماؤُهُ مُتناثِراً
أبصرتَ حولَ السَّفحِ شِبهَ غُبارِ
كالبحرِ ذي التَيّارِ يَدفَعُ بعضَهُ
ويصولُ كالضِرغامِ ذي الأظفارِ

من قمّةٍ كالنّهدِ ، أيُّ فتىً رأى
نهداً يَفيضُ بعارضٍ مِدرارِ ؟
فكأنّما هي مِنبرٌ وكأنّهُ
« مِيرابُ » بين عصائبِ الثّوّارِ
مَن لمْ يُشاهدْ ساعةً وثَباتِهِ
لمْ يدْرِ كيفَ تغطرُسُ الجبّارِ
ما زلتُ أحسبُ كلَّ صمتٍ حكمةً
حتّى بَصُرتُ بذلكَ الثّرثارِ
أعدَدْتُ ، قبلَ أراهُ ، وقفةَ عابرٍ
لاهٍ فكانتْ وقفةَ استِعبارِ ! . .

. . .

يا أختَ دارِ الخلدِ ، يا أمَّ القرى ،
يا ربّةَ الغـابـاتِ والأنهارِ
للهِ يومٌ فيـكِ قد قضّيتُهُ
معَ عُصبةٍ مِن خيرةِ الأنصارِ
نمشي على تلكَ الهضابِ ودونَنا
بحرٌ من الأغراسِ والأشجارِ

تنسابُ فيهِ العينُ بينَ جداولٍ
وخمائلٍ ومَسالكٍ وديارِ
آناً على جبلٍ مكينٍ راسخٍ
راسٍ ، وآناً فوقَ جُرفٍ هارِ
تهوي الحجارةُ تحتَنا من حالقٍ
ونكادُ أنْ نهوي معَ الأحجارِ
لو كنتَ شاهدَنا نُهرولُ من علٍ
لَضحكتَ مِنّا ضِحكةَ استهتارِ
الرّيحُ ساكنةٌ ونحنُ نظنُّنا
للخوفِ مُندفعينَ معْ إعصارِ
والأرضُ ثابتةٌ ونحنُ نخالُها
تهتزُّ معْ دفْعِ النّسيمِ السّاري
مـا زالَ يَسْنُدُ بعضُنا بعضاً كما
يتماسكُ الرُّوّادُ في الأسفارِ
ويَشدُّ هذا ذاكَ من أزرارِهِ
فيشدُّني ذيّاكَ من أزراري
حتى رَجعْنا سالمينَ ولم نَعُدْ

لو لم يمدُّ اللهُ في الأعمـــارِ
ولقد وقفتُ حيالَ نهرِكِ بُكرةً
والطيرُ في الوُكُناتِ والأوكارِ
متهيّباً فكأنّني في هيكلٍ
وكأنّهُ سِفرٌ مِنَ الأسفارِ
ما كنتُ من يهوى السكوتَ وإنّما
عقلتْ لساني رهبةُ الأدهارِ
مرَّ النسيمُ بـــهِ فمرّتْ مقلتي
منهُ بأسطارٍ على أسطـــارِ
فالقلبُ مشتغلٌ بتذكاراتِهِ
والطرفُ مندفعٌ مـــع التيّارِ
حتى تجلّتْ فوقَ هاتيكَ الرُّبى
شمسُ الصّباحِ تلوحُ كالدّينارِ
فعلى جوانبِهِ وشاحُ زبرجدٍ
وعلى غواربِهِ وشاحُ بهـــارِ
لو أبصرتْ عيناكَ فيهِ خيالَها
لرأيتَ مرآةً بغيرِ إطـــارِ

يمنحُهُ سحراً وأسراري معي
ورجعتُ في أعماقِهِ أسراري !..

. . .

إني حسدتُ على القُرى أهلَ القرى
وغبطتُ حتّى نافخَ المزمـــارِ
ليلٌ وصبحٌ بين إخوانِ الصّفا
مـــا كانَ أجملَ ليلتي ونهاري !

بنت القفر

أرسل الشاعر مسعود سماحة الى صاحب الديوان القصيدة التالية مصحوبة بكمية من البن الفاخر .

أدِرْها قهوةً كعصيرِ بِكْرِ ... تجلّتْ في الكؤوسِ بكفِّ بكرِ

كأنَّ المسكَ يغلي حينَ تغلي ... ويجري في الأواني حينَ تجري

تعيدُ إلى الضعيفِ قوًى وتهدي ... إليهِ غبطةً وصفاءَ فكرِ

تَعشّقها الشعوبُ فكلُّ شعبٍ ... أعدَّ لها الثغورَ وكلَّ قطرِ

تلوّحَ حبُّها في كلِّ كوخٍ ... ولاحَ حَبابُها في كلِّ قصرِ

يضوعُ عبيرُها برمالِ نجدٍ ... ويعبقُ عطرُها بقصورِ مصرِ

تَشِي عنبراً في كلِّ أنفٍ ... وتنزلُ قرقفاً في كلِّ ثغرِ

ويزري طعمُها حلواً ومرّاً ... بما في الأرضِ من حُلوٍ ومرِّ

***

وسمراء إذا زارتْ صباحاً ... أحبُّ إليَّ من بيضٍ وسمرِ

يحوكُ لها البخارُ رداءَ ندٍّ ... ويكسوها الحبابُ وشاحَ درِّ

كسرتُ الدنَّ من عَهدٍ بعيدٍ ... فأمستْ بعد خمرِ الدنِّ خمري

فإنْ حلّتْ قواكَ جيوشُ ضَعفٍ ... وهالكَ عبءُ همٍّ مسبطرِّ

عليكَ بقهوةٍ رقّتْ وراقتْ ... كشعركَ لا يُجاري أو كشعري

(مسعود)

فأجابهُ بالقصيدة التالية :

شربناهـا على سرِّ القوافي ... وسرِّ الشاعرِ السمحِ الأبرِّ

سقانا قهوتَينِ « بغيرِ مَنٍّ » ... عصيرِ شجيرةٍ وعصيرِ فكرِ

فنحنُ اثنانِ سكرانٌ لحينٍ ... على أمنٍ ، وسكرانٌ لدهرِ

فمَنْ أمسى يهيمُ ببنتِ قصرٍ ... فإنّا هائمونَ ببنتِ قفرِ

إذا حضرتْ فذلكَ يومُ سَعْدٍ ... وإنْ غابتْ فذلكَ يومُ قهرِ

لهـا من ذاتِها سترٌ رقيقٌ ... كما صَبغَ الحياءُ جبينَ بكرِ

إذا دارتْ على الجُلّاسِ هشّوا ... كأنَّ كؤوسَها أخبارُ نصرِ

ونرشفُها فنرشفُ ريقَ خَودٍ ... ونَنشقُها فننشقُ ريحَ عطرِ

ولا نخشى مِنَ الحكّامِ حدّاً ... وعندَ اللهِ لم نوصمْ بوزرِ

فما في شربِها إثمٌ ونكرٌ ... وشربُ الخمرِ نكرٌ أيُّ نكرِ

ولبستَ تستخفُّ أخا وَقارِ ... وبنتُ الدنِّ بالأحلامِ تزري
وتحفظُ سرَّ صاحِبِها مصوناً ... وبنتُ الكرمِ تفضحُ كلَّ سرِّ
وللصهباء أوقاتٌ ، وهذي ... شرابُ الناسِ في حرٍّ وقرِّ
وتصلحُ أنْ يُطافَ بها مساء ... وتحسنُ أنْ تكونَ شرابَ ظهرِ
فلو عرفتْ مزاياهـا الغواني ... لعلّقَ حبَّهـا في كلِّ نحرِ
كأنَّ حبوبها خضراً وصفراً ... فصوصَ زمردٍ وشذورَ تبرِ
كأنَّ الجنَّ قد نفثتْ رؤاها ... على أوراقها في ضوءِ فجرِ
ألستَ ترى إليها كيفَ تطغى ... وكيفَ تثورُ إنْ مُسّتْ بجمرِ
كأنَّ نخيلَ مصرَ قد حساها ... وإلا ما اهتزازُ نخيلِ مصرِ ؟
جلوْتُ بها من الأكدارِ ذهني ... كما أني غسلتُ همومَ صدري
وما هيَ قهوةٌ تطهى وتحسى ... ولكنْ نفحةٌ من روحِ حُرِّ
حوَى في شعرِه عبثُ ابنِ هاني ... وزادَ عليهِ فلسفةَ المعرّي
فيـا لكَ شاعراً لبقاً لعوباً ... كأنَّ يراعَهُ أنبوبُ سحرِ
يفيضُ سلاسةً في كلِّ لفظٍ ... ويجري رقةً في كلِّ سطرِ
حوتْ دارُ «السميرِ» هديّتَه ... وتحوي هذهِ الأوراقُ شكري

العاشق المخدوع

أبصرتُها في الخمسِ والعشرِ ... فرأيتُ أختَ الرئمِ والبدرِ
عذراءُ ليسَ الفجرُ والدها ... وكأنّهـا مولودةُ الفجرِ
بسّامةٌ في ثغرِهـا دُرَرٌ ... يهفو إليها الشاعرُ العصري
ولهـا قوامٌ لو أشبّهُهُ ... بالغصنِ باءَ الغصنُ بالفخرِ
مثلُ الحمامةِ في وداعتها ... وكزهرةِ النسرينِ في الطهرِ
مثلُ الحمامةِ غيرَ أنَّ لهـا ... صوتَ الهزارِ ولفتةَ الصقرِ [3]

...

شاهدتُها يوماً وقدْ جلستْ ... في الروضِ بينَ الماءِ والزهرِ
ويدُ الفتى «هنري» تطوّقُها ... فحسدتُ ذاكَ الطوقَ في الخصرِ
وحسدتُ مقلتَهُ ومسمعَهُ ... لجمالِهـا وكلاهما الدرّي
أغمضتُ أجفاني على مضضٍ ... وطويتُ أحشائي على الجمرِ

---

(١) الرئم : الغزال .
(٢) يهفو : يميل .
(٣) الهزار : طائر مغرد .
(٤) استعار الجمر لشدة الحزن الذي أصابه ، والمضض : الحزن الشديد .

وخشيتُ أنّ الوجدَ يَسلبني حلمي ، ويغلبُني على أمري
فرجعتُ أدراجي أغالبُهُ باليأسِ آونَـةً وبالصبْرِ
ثمّ انقضى عـامٌ وأعقبهُ ثانٍ وذاكَ السرّ في صدري
فعجبتُ ، مني كيفَ أذكرها وقد انقضى حولانِ من عمري
عملتْ الليالي في تتابُعها تزري بها عندي فلم تزرِ (١)
زادتْ ملاحتها فزدتُ بهـا كلفاً ، وموجدةً على «هنري» (٢)

. . .

وسئمتُ داري وهي واسعةٌ فتركتُها وخرجتُ في أمرِ (٣)
فرأيتُ فتيانَ الحِمى انتظَموا كالعقدِ ، أو كالعسكرِ المجرِ (٤)
يتفكّهونَ بكلّ نادرةٍ وعلى الوجوهِ علائمُ البِشرِ
ساروا فأعجبني تدفّقُهُمْ فتبعتُهمْ أدري ولا أدري
ما بالهم ؟ ولأيةٍ وقفوا ؟ لِمَنِ البناءُ يلوحُ كالقصرِ
أوّاهُ ! هذي دارُ فاتنتي من قالَ ما للشمسِ من خدرِ ؟
وعرفتُ من «فرجينَ» جارتَها مـا زادني ضُراً على ضُرٍّ

---

(١) تزري : تتهاون .
(٢) الكلف : شدة العشق .
(٣) سئمت : مللت .
(٤) العسكر المجر : الجند الكثير .

قد كانَ هذا يومَ خطبتِها يا أرضُ ميدي ! يا سما خِرّي (١)
ورأيتُ ساعِدَها بساعِدِهِ فوددتُ لو غُيّبتُ في قبرِ
وشعرتُ أنّ الأرضَ واجفةٌ تحتي ، وأنّ النارَ في صدري (٢)
وخشيتُ أنّ الوجدَ يَسلبني حِلمي ويغلبُني على أمري
فرجعتُ أدراجي أغالبُهُ اليأسِ آونَةً وبالصبرِ

قالوا : الكنيسةُ خيرُ تعزيَةٍ لِمَنِ ابتلي في الحبِّ بالهجرِ
فنذرتُ أنْ أقضي الحياةَ بها وقصدتُها كيما أفي نذري
لازمتُها بدرينِ مـا التفتتْ عيني إلى شمسٍ ولا بدرِ (٣)
أتلو أناشيدَ النبيّ ضُحى وأطالعُ الإنجيلَ في العصرِ
حِيناً مع الرهبانِ ، آونَةً وَحدي ، وأحياناً معَ الحبرِ (٤)
في الغابِ فوقَ العشبِ مضطجعاً في السّفحِ مستنداً إلى الصخرِ
في غرفتي ، والريحُ راكدةٌ بينَ المغارسِ ، والصَّبا تسري
حتى إذا مـا القلبُ زايلَهُ تبريحُهُ ، وصحوتُ من سُكري

---

(١) ميدي : اضطربي وتحركي . خري : اسقطي .
(٢) واجفة : خائفة .
(٣) أراد بالبدرين عشيقته والقمر .
(٤) الحبر : الأسقف، أي المطران .

وَسَلوتُها وسَلَوْتُ خاطِبَها … وأَلِفتُ عيشَ الضنكِ والعسرِ [1]
عـادَ القضاءُ إلى محارَبتي … ورجعتُ للشكوى من الدهرِ

. . .

في ضحوةٍ وقفَ النسيمُ بها … مُتَردِّداً في صفحةِ النهرِ
كالشاعرِ الباكي على طَلَلٍ … أو قارىءٍ حيرانَ في سِفرِ
والشمسُ ساطِعةٌ ولامعةٌ … تكسو حواشي النهرِ بالتبرِ
والأرضُ حاليةٌ جَوانبُها … بالزّهرِ من قـانٍ ومُصفرِّ
فكأنّها بالعشبِ كاسيةٌ … حسناءُ في أثوابـها الخضرِ
وعلا هتافُ الطيرِ إذ أمنتْ … بأسَ العُقابِ وصولةَ النسرِ
تتلو على أهلِ الهوى سُوَراً … ليستْ بمنظومٍ ولا نَثرِ [2]
يَحنو الهزارُ على أليفتِهِ … ويُداعبُ القمريّةَ القُمري
وانسابَ كلُّ مصفقٍ عذبٍ … واهتزَّ كلُّ مهفهفٍ نضرِ
فتذكّرتْ نفسي صَبابتَها … ما أولعَ المهجورَ بالذكرِ [3]
أرسَلتُ طرفي رائداً فجرى … وجَرى على آثارِهِ فِكري [4]

(١) الضنك : العيش الضيق .
(٢) السور جمع السورة : الآية .
(٣) الصبابة : الشوق والولع الشديد .
(٤) طرفي : عيني .

حتى دَوَى صوتُ الرئيسِ بنا … فهرعتُ والرهبانُ في إثري
وإذا بِنـا نَلقى كنيستَنا … بالوافدينَ تموجُ كالبحرِ
وإذا «بها» وإذا الفتى هنري … في حـلّةٍ بيضاءَ كالفجرِ
تمشي ويمشي بينَ ذي أدبٍ … حلوٍ ، وبينَ مليحةٍ بِكرِ
رفَعَ الرئيسُ عليهما يَدَهُ … وأنا أرى ويدي على صَدري
يا قلبُ ذُبْ ! يا مُهجتي انفطري … يا طرفُ فِضْ بالأدمعِ الحُمْرِ
أغمضتُ أجفاني على مَضضٍ … وطَوَيتُ أحشائي عَلى الجمرِ
وخشيتُ أنّ الوجدَ يَسلبني … حلمي ، ويغلبُني عَلى أمري [1]
فرجعتُ أدراجي أغالبُهُ … باليأسِ آونـةً وبالصّبرِ
وخرجتُ لا ألوي على أحدٍ … ورضيتُ بعدَ الزّهدِ بالكفرِ

. . .

أشفقتُ من همّي عَلى كَبِدي … وخشيتُ من دَمعي عَلى نَحري [2]
فكلفتُ بالصهباءِ أشرَبُها … في منزلي ، في الحانِ ، في القفرِ [3]
أبغي الشفاءَ مِنَ الهُمومِ بها … فتزيدُني وِقراً عَلى وِقرِ [4]

(١) الوجد : شدة الحب .
(٢) النحر : العنق ، من باب تسمية الجزء باسم الكل .
(٣) الصهباء : الخمرة . الحان : محل مبيع الخمرة .
(٤) الوقر : الحمل الثقيل وأراد به الهم .

وتزيدني ولعاً بها وهوًى ... وتزيدني حقداً على هنري
قالَ الطبيبُ وقد رأى سقمي: ... هو من فعلِ الهوى العُذري
ما لي بدائكَ يا فتى قِبَلٌ ... السحرُ محتاجٌ إلى سِحرِ
ومضى يُقلّبُ كفّهُ أسفاً ... وابثُ كالمقتولِ في الوكرِ
ما أبصرَتْ عيناي غانيةً ... إلا ذكرتُ إلى الدُّمى فقري [1]

. . .

وسئمتُ داري وهي واسعةٌ ... فتركتُها وخرجتُ في أمرِ
فرأيتُها في السوقِ واقفةً ... ودموعُها تنهلّ كالقطرِ
في بُردةٍ كالليلِ حالكةٍ ... لهفي على أثوابِها الحُمرِ [2]
فدنَوْتُ أسألُها وقد جزِعَتْ ... نفسي، وزلزلَ حزنُها ظهري [3]
قالت: قضى هنري! فقلتُ: قضى ... من كادَ لي كَيْداً ولم يدرِ [4]
لا تكرَهوا شرّاً يصيبُكمُ ... فلرُبَّ خيرٍ جاءَ مِنْ شرّ
رضاً هَواها بي فقلتُ لها: ... قد حلّ هذا الموتُ من أسري
قالت: ومن أسري! فقلتُ: إذن ... لي أنتِ؟ قالت: أنت ذو الأمرِ

---

(١) الدمى جمع الدمية: الصورة المزينة فيها حمرة كالدم.
(٢) حالكة: شديدة السواد.
(٣) جزعت: خافت.
(٤) قضى: مات.

فأدرتُ زندي حولَ منكبِها ... ولثمتُها في النحرِ والثغرِ
وشفيتُ نفسي من لَواعجِها ... وثأرتُ بالتصريحِ من سِرّي [1]
ثمّ انثنيتُ بها على عجلٍ ... بابَ الكنيسةِ جاعلاً شَطري [2]
وهنـاكَ باركَني وهنّأني ... من هنّأوا قبلي الفتى هنري

. . .

من بَعدِ شهرٍ مرّ لي معها ... أبصرتُ وضحَ الشيبِ في شعري
ما كنتُ أدري قبلَ صُحبتِها ... أنّ المَشيبَ يكونُ في شهرِ
فكرتُ في هنري وكيفَ قضى ... فوجدتُ هنري واضحَ العذرِ
يا طالَما قد كنتُ أحسدُهُ ... واليومَ أحسدُهُ على القبرِ

---

(١) لواعجها: حرقتها.
(٢) انثنيت: رجعت. شطري: جهتي.

أنا هو

كانت قُبيلَ العصرِ مركبةٌ   تجري بمن فيهـا من السَّفْرِ
ما بَينَ مُنخفضٍ ومُرتفعٍ   عالٍ ، وبينَ السَّهلِ والوَعْرِ
وتَخُـطُّ بالعجلاتِ سائرةً   في الأرضِ إسطاراً ولا تدري
كَتَبَتْ بلا حبرٍ وعزَّ على   الأقلامِ حرفٌ دونَ ما حِبْرِ
سيارةٌ في الأرضِ ما فَتِئَتْ   كالطَّيرِ من وكرٍ إلى وكرِ
تأبى وتأنفُ أن يَلِمَّ بهـا   تَعَبٌ، وأنْ تشكو سوى الزَّجرِ
حَمَلَتْ من الرُّكابِ كلَّ فتًى   حَسَنَ الرُّواءِ وكلَّ ذي قَدْرِ
يتحدَّثونَ فذاكَ عن أملٍ   آتٍ ، وذا عن سالفِ العُمْرِ
يتحدَّثونَ وتلـكَ سائرةٌ   بالقومِ لا تلوي على أمْرِ
فكأنما ضُرِبَتْ لهـا أجلاً   أن تلتقي والشَّمسَ في خِدْرِ
حتى إذا صارتْ بداحيةٍ   ممدودةٍ أطرافُها صُفْرِ
سَقَطَتْ من العجلاتِ واحدةٌ   فتحطَّمَتْ إرَباً على الصَّخْرِ
فتشاءمَ الرُّكابُ واضطربوا   ممـا ألَمَّ بهمْ من الضُّرِ

وتفرَّقوا بعـدَ انتظامِهِمِ   بَدَداً وكمْ نَظْمٍ إلى نَثْرِ
والشَّمسُ قد سالَتْ أشعَّتُها   تكسو أديمَ الأرضِ بالتِّبْرِ
والأُفقُ مُحْمَرٌّ كأنَّ بهِ   حنقاً على الأيامِ والدَّهرِ
والقـومُ واجفةٌ قلوبُهُمُ   قلقـاً ، كأنهم على الجَمْرِ
قد كانَ بَيْنَ الجَمْعِ ناهدةُ   الثدينِ ذاتُ ملاحةٍ تُغْري
تبكي بكاءَ القانطينَ ومـا   أسخى دموعَ الغادةِ البِكْرِ
وَقَفَتْ وشمسُ الأُفقِ غاربةٌ   تذري علَى كالوردِ ، كالقطرِ
شمسانَ لولا أنَّ بينهما   صلةٌ لما بَكَتَا من الهَجْرِ
وتديرُ عينَيها على جَزَعٍ   كالظَّبيِ ملتفتاً من الذُّعْرِ
وإذا فتًى كالفجرِ طلعتُهُ   بل ربَّمـا أربى على الفجرِ
وافى إليهـا قائلاً عجباً   ممَّ البكاءُ شقيقةَ البدرِ ؟
قالتْ أخافُ الليلَ يدهمُني   ما أوحشَ الظلماءَ في القَفْرِ !
وأشدُّ ما أخشاهُ سَفْكُ دمي   بيدِ الأثيمِ اللصِّ ذي الغَدْرِ
«هنري» ، اللعينُ وما الفتى هنري   إلّا ابنُ أمِّ الموتِ لو تدري
رَصَدَ السبيلَ فـا تَمُرُّ بهِ   قَدَمٌ ولا النسماتُ إذ تسري
وا شقوتي إنَّ الطريقَ إلى   سَكَني على مُستَخشَنِ النكْرِ
إني لأعلمُ إنَّمـا قَدَمي   تسعى حثيثاً في " القبرِ

قالَ الفتى هيهاتِ خَوفكِ لنْ   يجديكِ شيئاً ربَّــةَ الطُّهْرِ
فتشجعي وعــليَّ فاتَّكلي   فأنا الذي يَحميكِ من هذرِ
قالتْ أخافُ من الحَزونِ على   هذا الشبابِ الناعمِ النَّضْرِ
فأجابها لا تجزعي وَثِقي   أني على ثِقَةٍ من النَّصْرِ
عادتْ كأنْ لم يَعْرُها خَلَلٌ   تَخِذُ القفــارَ سفينةُ الــبَرِّ
والليلُ معتكرٌ يجيشُ كما   جاشتْ همومُ النفسِ في الصدْرِ
فكأنَّهُ الآمــالُ واسعةٌ   والبحرُ في مَدٍّ وفي جَزْرِ
وكأنَّ أنجمهُ وقد سَطَعَتْ   دَمعُ الدَّلالِ وناصعُ الدُّرِّ
والبدرُ أسفرَ رغمَ شامخةٍ   قد حاولتْ تطويهِ كالسِّرِّ
ألقى أشعتَهُ فكانَ لها   لونُ اللُّجَيْنِ ولؤلؤُ الثغرِ
فكأنَّهُ الحسناءُ طالعةٌ   من خِدْرِها أو دميةُ القصرِ
وكأنّما جُنحُ الظلامِ جَنى   ذنباً فجــاءَ البدرُ كالعُذْرِ
وَضَحتْ مسالكُ للمطيّةِ قد   كانتْ شبيهَ غوامضِ البَحْرِ
فَغَدَتْ تُحاكي السَّهْمَ منطلقاً   في جَرْيِها والطيفَ إذ يَسري
والقومُ في لَهْوٍ وفي طَرَبٍ   يتناشدون أطايبَ الشِّعْرِ
حتى إذا صارتْ بمنعرجٍ   وقفتْ كمُنتَبِهٍ من السُّكْرِ
فترجّلتْ «ليزا» وصاحبَها   ومشتْ وأعقبَها على الأثْرِ

واستأنفتْ تلكَ المطيّةُ مــا   قد كانَ مِنْ كَرٍّ ومن فَرِّ
مَشَتِ المليحةُ وهي مُطرِقةٌ   مــا ثَمَّ من تيهٍ ولا كِبْرِ
أنّى تتيهُ وقد أناخَ بهــا   همٌّ وبعضُ الهمِّ كالوَقْرِ
لم تحتسي خمراً وتحسَبُها   ممّا بها نَشْوى من الخَمْرِ
في غــايةٍ تحكي ذوائبَها   في لونِها واللفِّ والنَّشْرِ
ضاقتْ ذوائبُها فما انفرجتْ   إلا لِسَيْرِ الذئبِ والنِّمْرِ
كالليلةِ الليــلاءِ ساجيةً   ولَرُبَّ ليلٍ ساطعٍ غُرِّ
قد حاولَ القمرُ المنيرُ بهــا   ما حاولَ الإيمانُ في الكُفْرِ
تحنو على ظَبْيٍ وقسْوَرَةٍ   أرأيتمْ سرينِ في صدرِ ؟
صقرٌ وورقاءُ ، ومن عجبٍ   أن تحتمي الورقاءُ بالصَّقْرِ
هذا وأعجبُ أنهــا سَلِمَتْ   منهُ على ما فيهِ من غَدْرِ
ظلَّتْ تسيرُ وظلَّ يتبعُها   ما ثَمَّ من إثمٍ ولا وِزْرِ
طالَ الطريقُ وطالَ سيرُهما   لكنَّ عُمْرَ الليلِ في قِصَرِ
حتى إذا سَفَرَ الصَّباحُ وقد   رَفَعَ الظلامُ وكانَ كالسِّتْرِ
والغابُ أوشكَ أن يبوحَ بها   وبِهِ ، بلا حَذَرٍ ، إلى النَّهْرِ
نَظَرَتْ إليهِ بمقلةٍ طَفَحَتْ   سحراً ووجهٍ فاضَ بالبِشْرِ
قالتْ لَهُ لم يَبْقَ من خطرٍ   جَمٌّ نُحاذِرُهُ ولا نَذْرِ

أنظرْ فإنَّ الصُّبحَ أوشكَ أنْ يمحو ضياءَ الأنجمِ الزُّهرِ
وأراهُ دَبَّ إلى الظَّلامِ فَهلْ هذا دبيبُ الشَّيبِ في الشَّعرِ
وأسمعْ ، فأصواتُ الطيورِ عَلَتْ بينَ النَّقا والضالِ والسدْرِ ؟
قالَ الفتى أوَ كُنْتُ في خَطَرٍ ؟ قالتْ لَهُ عَجَباً ألم تَدْرِ ؟
فأجابها مـــا كانَ في خَطَرٍ مَنْ كانَ صاحِبَهُ الفتى هَتْري
فتقهقرتْ فَزَعاً فقالَ لهـــا لا تهلعي واصغي إلى حُرّ
ما كنتُ بالشِّريرِ قَطُّ ولا الرَّجلُ الذي يرتاحُ للشَّرّ
لكنني دهرٌ يَجورُ على دَهرٍ يجورُ على بني الدَّهرِ
بـــل إنني خَطَرٌ على فئةٍ منها على خَطَرٍ ذوي الضُّرِ
قَتَلوا أبي ظُلمـــاً فقتلهمُ عَدْلٌ وحسبي العَدْلُ أن يجري
لا سلمَ مـــا بيني وبينهمُ لا سَلْمَ بينَ الهِرِّ والفأرِ
سَيَرونَ في المَوْتِ منتقِماً لا شافعَ في الأخْذِ بالثَّأرِ
تاللهِ مـــا أنساكَ يا أبتِ أبداً ولا أغضي على الوِتْرِ
قالتْ لقد هيَّجْتَ لي شَجَناً فإليكَ ما قد كانَ من أمري
بَعَثَ المليكُ إلى أبي فمضى وأخي معاً تَوّاً إلى القَصْرِ
فـــإذا أبي في القَبْرِ مرتهنٌ وإذا أخي في رِبْقَةِ الأَسْرِ
يا ساعديَّ بِتَرْتُما ويَدُ الدَّهرِ الخَؤونِ أحقُّ بالبَتْرِ

نابي وظفري بتُّ بعدكما وحدي بلا نابٍ ولا ظُفُرِ
ويلاهُ من جَوْرِ الزَّمانِ بنا والويلُ منهُ لكلِّ مُغْتَرِّ
وكأننا والموتُ يَرْتَعُ في أرواحنـــا مرعىً ومُستمري
لـــا انتهتْ وإذا بِهِ دَهِشٌ حَيْرانُ كالمأخوذِ بالسِّحْرِ
شاهَ الكلامُ فنالَهُ خَرَسٌ كلُّ البلاغةِ تحتَ ذا الحَصْرِ
وكذلكَ الغَيْداءُ أذهلَها مَيْلٌ إلى هذا الفَتى الغِرِّ
قالتْ أخي واللهِ ـــ واقتربَتْ ترنو إليه بمُقْـــلةِ العُفْرِ
وإذا بِـــهِ ألقى عباءتَهُ بَرَحَ الخفاءُ بها عنِ الجَهْرِ
صاحتْ أخي فيكتورُ وا طَرَبي روحي ، شقيقي ، مهجتي ، ذُخري
وتعانقا ، فَبكى الفتى فَرَحاً إنَّ البخارَ نتيجةُ الحَرِّ
وتساقطتْ في الخدِّ أدمعُها كالقَطْرِ فوقَ نَواضرِ الزَّهرِ

. . .

قُلْ للألى يشكونَ دَهرَهُمُ لا بدَّ من حُلْوٍ ومنْ مُرّ
صبراً إذا جَلَلٌ أصابكُمُ فالعُسْرُ آخرُهُ إلى اليُسْرِ

فنون الوصف

كأني في روضٍ أرى الماءَ جارياً   أمامي، وفوقي الغيمُ يجهَدُ بالنشرِ
توهّمتهُ هماً فقلتُ لهُ انجلي   فإنَّ همومي ضاقَ عن وسعِها صدري
بربِّكَ سِرْ حيثُ الخليُّ فإنني   فتىً لا أرى غيرَ المصائبِ في دهري
فأقشعَ حتى لم أشكَّ بأنّهُ   أصاخَ إلى قولي وما شكَّ في أمري
رعى اللهُ ذيّاكَ الغمامَ الذي رعى   عهودي وأولاني الجميلَ ولم يدْرِ
تظلّلتُ بالأشجارِ عندَ اختفائِهِ   ويا رُبَّ ظلٍّ كانَ أجملَ من قطرِ
جلستُ أبثُّ الزهرَ سراً كتمتُهُ   عنِ الناسِ حتى صرتُ أخفى من السرِّ
ولما شكوتُ الوجدَ وجدي تمايلتْ   كأنَّ الذي أشكوهُ ضربٌ من الخمرِ
وأدهشَها صبري فأدهشني الهوى   دهشتُ لأنَّ الزهرَ أدهشَها صبري
ولمـا درَتْ أني محبٌّ متيَّمٌ   بكَتْ وبكاني كلُّ ضاحكٍ مفترِ
عجبتُ لها تبكي لما بي ولم يكُنْ   عجيباً على مثلي البكاءُ من الصخرِ
كأني بدرٌ، والزهورُ كواكبٌ،   وذا الروضُ أفقٌ حاهُ بالبدرِ والزهرِ

كأني وقد أطلقتُ نفسي من العَنا   مليكٌ لي الأغصانُ كالعسكرِ المجرِ
فما أسعدَ الإنسانَ في ساعةِ المنى   وما أجملَ الأحلامَ في أوّلِ العمرِ ؟
وهاتفةٍ قد أقلقتني بنوحِها   فكنتُ كمخمورٍ أفاقَ من السُّكْرِ
تُرى روّعتْ مثلي من الدهرِ بالفرا   قِ، أم بُدِّلتْ مثلي من اليسرِ بالعسرِ
بكيتُ ولو لم أبكِ مما بكتْ لهُ   بكيتُ لما بي من سُقامٍ ومن ضُرٍّ
ونهرٍ إذا والى التجعّدَ ماؤهُ   ذكرتُ الأفاعي إذ تلوي على الجمرِ
تحيطُ به الأشجارُ من كلِّ جانبٍ   كما دارَ حولَ الجِيدِ عقدٌ من الدُّرِّ
وقد رقمتْ أغصانَها في أديمِهِ   كتاباً من الأوراقِ، سطراً على سطرِ
كأنَّ دنانيراً تساقطُ فوقَهُ   وليسَ دنانيرٌ سوى الورقِ النَّضْرِ
كأني بهِ المرآةُ عندَ صفائِها   تمثّلُ ما يدنو إليها ولا تدري
فما كانَ أدرى الغصنَ بالنظمِ والنثرِ؟   وما كانَ أدرى الماءَ بالطيِّ والنشرِ؟
ذرِ المدحَ والتشبيبَ بالخمرِ والمهى   فإني رأيتُ الوصفَ أليقَ بالشعرِ
وما كانَ نظمُ الشعرِ دأبي وإنّما   دعاني إليهِ الحبُّ والحبُّ ذو أمرِ
ولي قلمٌ كالرمحِ يهتزُّ في يدي   إلى الخيرِ يسعى والرماحُ إلى الشرِّ
وتفتكُ هاتيكَ الأسنّةُ في الحشى   ويحيى الحشى إن راحَ يفتكُ بالحبْرِ

إذا ما شدا بالطرْسِ أذهبَ شدوُهُ
هومَ ذوي الشكوى ووَقْرَ ذوي الوقرِ
تَبختَرَ فوقَ الطرْسِ يسحبُ ذيلَهُ
فقالوا بهِ كِبْرٌ ، فقلتُ عن الكِبْرِ
لكلٍّ من الدنيا حبيبٌ وذا الذي
أشدُّ به أزري ويعلو به قَدْري
ويَبقى به ذكرى إذا غالَني الرّدى
حسبُ الفتى ذكرٌ يدومُ إلى الحشرِ

•

غرامية

عيناكِ والسحرُ الذي فيهما / صيرتاني شاعراً ساحرا
علّمتني الحبَّ وعلمتُهُ / بَدرَ الدجى ، والغصنَ ، والطائرا
إنْ غبتِ عن عيني وجنَّ الدجى / سألتُ عنكِ القمرَ الزاهرا
وأطرقُ الروضةَ عندَ الضحى / كيما أناجي البلبلَ الشاعرا
وأنشقُ الوردةَ في كمّها / لأنَّ فيهـا أرجاً عاطرا
يذكّرُ الصبُّ بذاكَ الشذا / هل تذكرينَ العاشقَ الذاكرا ؟
كم نائمٍ في وكره هانىءٍ / نَبّهتِهِ من وكرِهِ باكرا ؟
أصبحَ مثلي تائهـاً حائراً / لمـا رآني في الربى حائرا
وراحَ يشكو لي وأشكو لَهُ / بَطشَ الهوى ، والهجرَ ، والهاجرا
وكوكبٍ أسمعتهُ زفرتي / فباتَ مثلي ساهياً ساهرا
زجرتُ حتى النومَ عن مقلتي / ولم أبالِ اللائمَ الزاجرا
يا ليتَ . أني مَثَلٌ ثائرٌ / كما تقول المثلَ السائرا

عيناك

عيناكِ والسِّحرُ الذي فيهما
صيّرَتاني شاعِراً ساحِرا
علّمتِني الحُبَّ وعلّمتُهُ
بدرَ الدُّجى والغُصنَ والطّائرا

إن غِبتِ عن عيني وجنّ الدُّجى
سألتُ عنكِ القمرَ الزّاهِرا
وأطرقُ الرّوضةَ عِندَ الضُّحى
كيما أناجي البُلبُلَ الشّاعِرا

وأنشقُ الوردةَ في كُمّها
لأنّ فيها أرجاً عاطِرا
يذكرُ الصّبَّ بذاكَ الشّذى
هل تذكرينَ العاشقَ الذّاكِرا؟

كم نائمٍ في وكرِهِ هانئٍ
نبّهتُهُ مِن وكرِهِ باكرا
أصبحَ مِثلي تائهاً حائراً
لمّا رآني في الرُّبى حائرا

وراحَ يشكو لي وأشكو لهُ
بطشَ الهوى والهجرَ والهاجِرا
وكوكبٍ أسمعتُهُ زفرتي
فباتَ مِثلي ساهِياً ساهِرا

زجرتُ حتّى النّومَ عن مُقلتي
ولم أبالِ اللائمَ الزّاجِرا
يا ليتَ أنّي مَثلٌ سائرٌ
كيما تقولي المَثلَ السّائرا

•

الشاعر

قالت وصفتَ لنا الرحيقَ وكوبَها   وصريعَها ومُديرَها والعاصِرا
والحقلَ والفلّاحَ فيه سائراً   عند المَسا يرعى القطيعَ النّافِرا
ووقفتَ عند البحر يهدُرُ موجُه   فرجعتَ بالألفاظِ بحراً هادرا
صوّرتَ في القرطاسِ حتى الخاطرا   فخلبتَنا وسحرتَ حتى الساحرا
وأريتَنا في كلّ قفرٍ روضةً   وأريتَنا في كلّ روضٍ طائرا
لكن إذا سألَ امروءٌ عنك امرءاً   أبصرتَ محتاراً يخاطب حائرا
من أنتَ يا هذا؟ فقلت لها: أنا   كالكهرباء أرى خفيّاً ظاهرا
قالت: لَعمرُكَ زِدتَ نفسي ضلّةً   ما كانَ ضرّكَ لو وصفتَ الشاعرا؟

. . .

فأجبتُها: هو مَن يسائلُ نفسَه   عن نفسِهِ في صُبحِهِ ومسائِهِ
والعينَ سرَّ سُهادِها ورقادِها   والقلبَ سرَّ قنوطِهِ ورجائِهِ
فيَحارُ بينَ مجيئِهِ وذهـابِهِ   ويحـارُ بينَ أمامِهِ وورائِهِ
ويرى أفولَ النجمِ قبلَ أفولِهِ   ويرى فناءَ الشيءِ قبلَ فنائِهِ

ويسيرُ في الرّوضِ الأغنّ فلا ترى   عيناهُ غيرَ الشوكِ في أرجائِهِ
إنْ نامَ لم ترقدْ هواجسُ روحِه   وإذا استفاقَ رأيتَهُ كالتائهِ
ما إنْ يُبالي ضحكَنا وبُكاءَنا   ويُخيفُنا في ضحكِهِ وبُكائِهِ
كالنارِ يلتهمُ العواطفَ عقلُهُ   فيميتُها ويموتُ في صحرائِهِ!!

. . .

قالت: أتعرفُ مَنْ وصفتَ؟ فقلت: مَن؟
قالتْ: وصفتَ الفيلسوفَ الكافرا
يا شاعرَ الدُّنيـا وفيكَ حَصافةٌ
ما كانَ ضرّكَ لو وصفتَ الشاعرا؟

. . .

فقلتُ: هو امرؤٌ يَهوى العُقارا   كما يَهوى مُغازَلةَ العَذارى
إذا فرغتْ مِن الرّاحِ الدِّنانُ   توهّمَ أنّمـا فرغَ الزمانُ
يُعاقرُها عَلَى ضوءِ الدّراري   فإنْ غربتْ، عَلَى ضوءِ النهارِ
ويَحسَبُ مِهرجانَ الناسِ مأتمْ   بلا خمرٍ، وجنّتَهم جهنّمْ
ملولٌ لا يدومُ عَلَى ولاءِ   ولكنْ لا يدومُ عَلَى عِداءِ
أخو لُبٍّ ولكنْ لا إرادةْ   وذو زُهدٍ ولكنْ بالزَّهادةْ
يميلُ إلى الدُّعابةِ والمُزاحِ   ولو بينَ الأسنّةِ والصِّفاحِ

ويوشكُ أنْ يُقهقِهَ في الجنازَهْ ... ويَرقصَ كالعواصِفِ في المَفازَهْ
إذا بَصُرَتْ به عينُ الأديبِ ... فقد وقعتْ على رجلٍ مُريبِ
يُعنِّفهُ الصِّحابُ فــلا يُنيبُ ... ويَزجرُهُ المَشيبُ فلا يتوبُ
فقالتْ: جئتَ بالكلمِ البَديعِ ... ولكنْ ما وصفتَ سِوى «الخليعِ»

. . .

وخِفتُ إعراضَها عني فقلتُ: إذن ... هو الذي أبداً يَبكي منَ الزَّمنِ
كأنما ليسَ في الدُّنيا سِواهُ فتًى ... معرَّضٌ لخطوبِ الدهرِ والمِحنِ
يشكو السَّقامَ وما في جسمه مرضٌ ... والسُّهدَ وهو قريبُ العهدِ بالوَسَنِ
والهجرَ، وهو بمرأىً من أحبَّتِهِ ... والأَسرَ، وهو طليقُ الروحِ والبَدَنِ
ولا يَرى حَسناً في الأرضِ يألَفُهُ ... أو يشتهيهِ وكم في الأرضِ من حَسَنِ
ينوحُ في الرَّوضِ والأشجارُ مورقةٌ ... كما يَنوحُ على الأطلالِ والدِّمَنِ
فقاطعتْني وقالتْ: قد بَعدتَ بنا ... ما ذي الصفاتُ صفاتُ الشاعرِ الفَطِنِ

. . .

قلتُ: مهلاً إذا ضللتُ وعُذراً ... ربمـا أخطأَ الحكيمُ وضلّا
هو من تَرسُمُ الجمالَ يداه ... فتراهُ في الطِرسِ أشهى وأحلى
لوذعيُّ الفؤادِ يلعبُ بالأ ... لبابِ لعباً إنْ شاء أنْ يتسلّى
ويُرينا ما ليسَ يبقى سيبقى ... ويُرينا ما ليسَ يبلى سيبلى

يطبعُ الشُّهبَ للأنامِ نُقوداً ... وهو يشكو الإملاقَ كيف تَولّى
أفما ذا من تبتغينَ وأبغي ... وصفَه؟ قالت المليحةُ: كلا!..

. . .

يا هذهِ إني عييتُ بوصفهِ ... وعجزتُ عن إدراكِ مكنوناتِهِ
لا تستطيعُ الحرُّ سَردَ صِفاتِها ... والرَّوضُ وصفَ زهورِهِ ونباتِهِ
هو من تراهُ سائراً فوق الثرى ... وكأنَّ فوقَ فؤادِهِ خُطواتِهِ
إنْ ناحَ فالأرواحُ في عَبراتِهِ ... وإذا شَدا فالحبُّ في نَغَماتِهِ
يبكي مع النائي على أوطانهُ ... ويُشاركُ المحزونَ في عَبراتِهِ
وتُغيِّرُ الأيامُ قلبَ فتاتِهِ ... ويَظلُّ ذا كَلَفٍ بقلبِ فتاتِهِ
هو مَن يعيشُ لغيرِهِ ويظنُّهُ ... مَن ليسَ يفهمُهُ يعيشُ لِذاتِهِ!!!

●

في القطار*

سرى يطوي بنا الأميالَ طيّاً   كما تطوي السّجلّ أو الإزارا
فلم ندرِ وجنحُ اللّيلِ داجٍ   أبرقاً ما ركبنا أم قِطارا
بنا وبهِ حنينٌ واشتياقٌ   ولولا ذاكَ ما سِرنا وسارا
ولكنّا وسعنا الشّوقَ ذرعاً   وضاقَ بهِ فصعّدهُ بخارا
وتمّمنا الّذي يخفيهِ وجداً   وتمّمنا الّذي يخفيهِ نارا
غفا صحبي وبعضُهم تغافى   ولم أذقِ الكرى إلّا غرارا
جلستُ أراقبُ الجوزاءَ وحدي   كما قد يرقُبُ السّاري المنارا
يسيرُ بنا القطارُ ونحنُ نرجو   لو اختصرَ الطّريقَ بنا اختصارا
وأقسِمُ لو أحدّثُهُ بما بي   لحلّقَ في الفضاءِ بنا وطارا
إلى البلدِ الأمينِ إلى كرامٍ   يراعونَ المودّةَ والجوارا
إلى المزدادِ ودّهم لدينا   إذا زدنا صفاتهمُ اختبارا

(*) ألقاها في الحفلة الشائقة التي أقامتها الطائفة الأرثوذكسية في مونتريال كندا لسيادة الارشمندريت أفثيموس عفيش عندما انتخب لأسقفية بروكلن وكان مع الوفد النيويوركي .

إذا سترتْ محبّتها قلوبٌ   فحبّي لا أطيقُ لهُ استتارا
فيا إخواننا في كلِّ أمرٍ   أصيخوا كي أخاطبكم جهارا
طويناها سباسِبَ شاسعاتٍ   تسيرُ الواخداتُ بها حيارى
ولولا أنْ تسيرَ بنا إليكم   ركائبُنا مشيناها اختيارا
لِننقُلَ من «نويورك» لكم تحايا   تحاكي في لطافتِها العقارا
وننقلَ عنكمُ أخبارَ صِدقٍ   تحاكي النّدَّ في الرّوضِ انتشارا
سمِعنا بالهزارِ ونحنُ قومٌ   كما نهوى الغِنا نهوى الهزارا
لديكمْ كوكبٌ وبنا ظلامٌ   وأنتمْ تكرهونَ لنا العِثارا
جعلنا رسمَهُ في كلِّ نادٍ   وصيّرنا القلوبَ لهُ إطارا
أجلْ، هذا الّذي نبغيهِ منكمْ   ونرجو لا اللّجينَ ولا النّضارا
أتيناكمْ على ظمأٍ لأنّا   عرفنا فيكمُ السّحبَ الغِزارا
وأنتمْ معشرٌ طابوا نفوساً   وأخلاقاً كما كرُموا نجارا
بقيتمْ في سلامٍ واغتباطٍ   تضيءُ وجوهُكمْ هذي الدّيارا

معركة شمولبو

دَبّتْ وقد أرخى الظّلامُ سِتارا   وَلَطالما كَتَمَ الدُّجى الأسرارا
سُفُنٌ هي الأطوادُ لولا سَيْرُها   أعهدتُمْ جبلاً مَشى أو سارا ؟
كالطّيْرِ أسراباً ولكنْ إنْ عَدَتْ   تَفُتِ الرّياحَ وَتَسْبقُ الأطيارا
مِثلُ الكواكبِ في النّظامِ وإنها   لكما الكواكبُ تَبعثُ الأنوارا
هيَ كالمدائنِ غيرَ أنّ نزيلَها   أبداً بِهـا يتوقعُ الأخطارا
وأظنُّها فَقَدَتْ حبيباً أو أخاً   ولذلك ارتَدَتِ السوادَ شِعارا
تَغْشى المياهَ لعلَّ ما في قلبِها   يُطفى ، فتزدادُ الضّلوعُ أُوارا
وتَميدُ حتى لا يُشكّ بأنها   سَكْرى ولَمْ تَذُقِ السّفينُ عقارا
وتَسُرُّ إن رأتِ الثغورَ كأنها   المقرورُ أبصرَ بَعْدَ جُهْدٍ نارا
وبوارجٌ قد سُيِّرتْ كالجحفلِ   الجرّارِ تَحملُ جحفلاً جرّارا
حَمَلَتْ أناساً كالقرودِ ، وجوهُهُمْ   صفراءُ يَحكي لونُها الدّينارا
فُطْسُ الأنوفِ ، قصيرةٌ قاماتُهُمْ   هيهاتَ لا تتجاوزُ الأشبارا
قد قادَها (طوغو) فقادَ ذُؤالةً   تَهوى الصِّعابَ وتَعشقُ الأسفارا

في قلبِهِ نارٌ وفي أحشائِها   مِثلُ الذي في نَفْسِهِ قد ثارا
ما زالَ يَدفعُها البُخارُ فترتمي   كالسّهمِ أُطلِقَ في الفضاءِ فسارا
طَوْراً تَراها في السّحابِ وتارةً   في القاعِ يُوشِكُ جُرْمُها يَتوارى
حتى دَنَتْ من ثَغرِ شمولبو الذي   جَمَعَ الأُلى لم يَعرفوا ما صارا
نَفَرٌ من الرّوسِ الذينَ سمعتُ عَنْ   أفعالهمْ فيما مضى الأخبارا
من كلِّ مِغوارٍ إذا زارَ الوَغى   زارَ الحِمامُ الفارسَ المغوارا
ما كانَ غيرَ (الفارياج) لديهمُ   وسفينةٌ أخرى أخفُّ دثارا
قالَ العدوُّ لهمْ ، وقد داناهمُ ،   وكَفى بما وافى بهِ إنذارا
« أمّا القتالُ فتلحقونَ بمن مَضوا   أو تُحسِنونَ فتُؤخَذونَ أسارى »
كانَ الجوابُ قذائفاً ناريةً   تَهوى الوُرودَ وتكرهُ الإصدارا
مِثلَ الرّجومِ إذا تَهوتْ لكنّها   لا تعرفُ الأخيارَ والأشرارا
وأقلُّها خطباً فكيفَ أشدُّها   لو نالتِ الجَبَلَ الأشمَّ انهارا
حَفّتْ بهم سُفُنُ العُداةِ وأحدقَتْ   حتى لَكِدْنَ إخالُها أسوارا
مـا بَيْنَ بارجةٍ وطَرّادٍ الى   نسّافةٍ والكلُّ يَقذفُ نارا
مَلأَ الفضاءَ دخانُها وذُكاءُ   احتجبتْ ، وما بَرِحَ النهارُ نهارا
والجوُّ أظلَمَ واكفهرَّ أديمُهُ   حتى كأنَّ على السّماءِ سِتارا
والبحرُ خُضّبَ بالدّماءِ وأصبحتْ   أمواجُهُ وهيَ اللُّجينُ نُضارا

ذا والقنابلُ لَمْ تَزَلْ مُنْهَلّةً　　منها تُحاكي الصَّيِّبَ المِدْرارا
والمركبانِ «الفارياجُ» وأختُها　　في هَبْوَةٍ لا يَعْرِفانِ قَرارا
إحداهُما ظَفِرَتْ بها مقذوفةٌ　　فكأنَّ صاعقةً أصابتْ دارا
فَهَوَتْ بمن فيها، وقد فَتَحَتْ لها　　الأمواجُ صَدْراً يكتمُ الأسرارا
هَبَطَتْ وزادَ هبوطَها المُتَقاتِلـ　　ـينَ على مُداومةِ الوَغى إصرارا
لكنَّما الأخرى أُصيبتْ بالأذى　　حتى غَدَتْ لا تملكُ التيّارا
فرأى الفتى ربّانُها أن يَفْتدي　　الجُنْدَ الكرامَ من المماتِ فِرارا
قد فَرَّ بعضهم ولكنْ جُلُّهم　　طَلَبوا الفِرارَ من الفِرارِ خِيارا
أودوا بها نَسْفاً، وماتوا عندَها　　غَرَقاً، ويَأبى الباسلونَ العارا
هذي حكايتُهم أُسَطِّرُها لكمْ　　لا دِرْهماً أبغي ولا دينارا
فلَئِنْ أفادتكُمْ فَخَيْرٌ جاء من　　شَرٍّ، وإلّا فلْتكُنْ تذكارا

الذئاب الخاطفة

ما بالُهُمْ نقضوا العهودَ جِهارا　　وتعمّدوا الإيذاءَ والإضرارا؟
واستأسدوا لما رأوا لَيْثَ الشَّرى　　عافَ الزئيرَ وقلَّمَ الأظفارا
داروا بهِ والشرُّ في أحداقهمْ　　ذا يدّعي حقّاً وذلكَ ثأرا
لؤمٌ لَعَمْرُ أبيكَ لم يَرَ مثلَهُ　　التاريخُ منذ استقرأ الأخبارا
وخيانةٌ ما جاءها القومُ الأُلى　　تَخِذوا مَعَ الوَحْشِ القِفارَ ديارا
أمسى يحرّضُ عاملَ الألمانِ عن　　أمسى يحرّضُ في الخفا البلغارا
أمعاشرَ الإفرنجِ ليسَ شهامةً　　ما تفعلونَ إذا أمِنْتُمْ عارا
أمِنَ المروءةِ أن يُساءَ جِوارُنا　　في حينِ أنّا لا نسيءُ جِوارا
أمِنَ المروءةِ أن يُطأطئَ تاجَهُ　　مَلِكٌ ليملكَ في الثرى أشبارا؟
البغيُ مرتعُهُ وخيمٌ فاعلموا　　والظلمُ يُعقِبُ للظلومِ دَمارا
إن تُحرِجوا الرئبالَ في عرينهِ　　يَذَرُ السكوتَ ويركبُ الأخطارا
وكما علمتمْ ذلكَ الجيشُ الذي　　يأبى ويأنفُ أن يُرى خَوّارا

فالويلُ للدنيا إذا نَقضَ الكرى   والويلُ للأيامِ إمّــا ثارا
إني أرى ليلًا يخيّمُ فوقَنا   لا ينجلي حتّى يُشبَّ النارا
فحذارِ ثمَّ حذارِ من يومٍ بِهِ   يجري النجيعُ على الثرى أنهارا
يومٌ تُباعُ بهِ النفوسُ رخيصةً   يومٌ يقصّرُ هولُهُ الأعمارا
يومٌ يكونُ به الجميعُ عساكراً   والكلُّ يَدْخلُ في الوغى مُختارا

باخرة الاغاثة

سيري تُراعيكِ النُجومُ السّاهِرهْ
لَيلاً ، وعَينُ الشّمسِ عِندَ الهاجِرهْ
فَلأنتِ عِندَ الشرقِ أجملُ باخِرهْ
تجري إليهِ بهـا المِياهُ الزّاخِرهْ
يا لَيتَ أنّي فيكِ أو إيّاكِ

سيري تُداعِبُ فَوقَكِ الرّيحُ العَلَمْ
وتُلاطِفُ البحرَ الخِضَمَّ إذا احتَدَمْ
بُورِكتِ باخِرةً وبورِكَ مَنْ عَلَمْ
فيكِ الخَلاصُ لِساكني تِلكَ الأكَمْ
يا لَيتَ أنّي فيكِ أو إيّاكِ

في الشّرقِ أحبابٌ عَلى جَمرِ الغَضا
نَقَمَ الزّمانُ عَليهِمُ بَعدَ الرِضى

هَجَروا الكرى وتطلّعوا نحوَ الفضا
يتوقّعونكِ كلّما برقٌ أضـا
سيري فإنّ الحربَ في مسراكِ

بيروتُ ... يا بنتَ البخار الجاريَهْ
فـإذا سُئلتِ منَ البقايا الباقيَهْ
قولي لهمْ إنّ الحياةَ الهانيَهْ
لمْ تنسِنا سُكّانَ تلكَ النّاحيَهْ

أمّا الدّليلُ، فحسْبُنا إيّاكِ !.

•

الشاعر والامة

خيرُ ما يكتبه ذو مرقمٍ … قِصةٌ فيها لِقومٍ تذكِرَهْ

...

كانَ في ماضي اللّيالي أمّةٌ … خَلعَ العِزُّ عليها حِبَرَهْ
يجدُ النّازلُ في أكنافِها … أوجُهاً ضاحكةً مستبشِرَهْ
ويَسيرُ الطّرفُ من أرباضِها … في مغانٍ حالياتٍ نَضِرَهْ
لم يَقِسْ شعبٌ إلى أمجادِها … مجدَهُ الباذخَ إلا استصغرَهْ
همُّها في العلمِ تُعلي شأنَهُ … بينَها، والجهلِ تمحو أثَرَهْ
ما تَغيبُ الشمسُ إلا أطلعت … للورى مَحْمَدَةً أو مأثُرَهْ
فتمنّى الصّبحُ تغدو شمسَهُ … وتمنّى اللّيلُ تغدو قمرَهْ
ومشى الدّهرُ إليها طائعاً … فمشتْ تائهةً مفتخِرَهْ

...

كانَ فيها مَلِكٌ ذو فِطنَةٍ … حازمٌ يصفحُ عندَ المقدرَهْ
يَعشقُ الأمرَ الذي تعشقُهُ … فإذا ما استنكرتْهُ استنكرَهْ

بلغتْ في عهدِهِ مرتبةً   لم تنلها أمّةٌ أو جمهرَة
فإذا أعطتْ ضعيفاً موثقاً   أشفقتْ أعداؤه أن تخفِرَه
وإذا حـاربها طاغيةٌ   كانتِ الظافرةَ المنتصرَة
ماتَ عنها ، فأقامتْ مَلِكاً   طائشَ الرأي كثيرَ الثرثرَة
حولَهُ عُصبةُ سُوءٍ ، كلّما   جاءَ إدّاً أقبلتْ مُعتذِرَة
حسّنتْ في عينِهِ آثامَهُ   وإليهِ نفسَهُ المستكبِرَه
وتمادى القومُ في غفلتِهمْ   فتمادى في الملاهي المُنكَره
زحزحَ الأمّةَ عن مركزِها   وطوى رايتَها المُنتشِرَه
ورأتْ فيها الليالي مَقتلاً   فرمَتها فأصابتْ مدبِرَه
فهوتْ عن عرشِها منعفرَةً   مثلما ترمي بسهمٍ قُبَّرَه

. . .

كانَ فيها شاعرٌ مشتهَرٌ   ذو قوافٍ بينها مُشتهِرَه
كلّما هزّتْ يداهُ وتراً   هزّ من كلّ فؤادٍ وتَرَه
تَعِسَ الحظّ، وهل أتعسُ من   شاعرٍ في أمّةٍ مُحتضَرَه ؟
يقرأ الناظرُ في مُقلتِهِ   ثورةً طاهرةً مستتِرَه
ما يراهُ الناسُ إلّا واقفاً   في مغاني قومِهِ المُندثِرَه
حائراً كالرّيحِ في أطلالِها   باكياً والسُّحبَ المنهمِرَه

وهيَ في أعوامِها لاهيةٌ   وكذاكَ الأمّةُ المُستهتِرَه
ما رأتْ مُهجتهُ المنفطرَه   لا ولا أدمُعَهُ المنحدِرَه
فشكاهُ الشعرُ مما سامَه   وشكاهُ الليلُ ممّا سَهِرَه
ثمّ لمّا عبثَ اليأسُ   مزّقَ الطِّرسَ وشجّ المحبَرَه !!

. . .

مرّ يوماً فرأى أشـ ا   جلسوا يبكونَ عندَ المقبرَه
قالَ مالكمْ ؟.. مـا خطبكمْ
أيُّ كنزٍ في الثرى أو جوهرَه ؟
ومَنِ الثاوي الذي تبكونَهُ   قيصرٌ، أم تُبّعٌ، أم عنترَه ؟
قالَ شيخٌ منهمُ مُحدَودِبٌ   ودموعُ اليأسِ تغشى بصرَه
إنّ من نبكيهِ لو أبصرَهُ   قيصرٌ أبصرَ فيهِ قيصرَه
كيفَ يا جاهلُ لا تعرفُهُ   وحُداةُ العيسِ تروي خبرَه؟
هو مَلكٌ كان فينا ومضى   فمضت أيّامُنا المزدهِرَه
ولبثنا بعدَه في ظُلَـمٍ   داجياتٍ فوقَنا مُعتكِرَه
والذي كانَ بنا « مَعرِفَةً »
لِصروفِ الدهرِ أمسى « نكِرَه »
فانتهى التاجُ إلى مُغتصِبٍ   لم يزلْ بالتاجِ حتى نثرَه

كلُّ ما تصبو إليه نفسُهُ مُعْصَرٌ أو خمرةٌ معتصَرَهْ
مُستهينٍ بالليالي وبنـا مستعينٍ بالطَّغامِ الفَجَرَهْ
كلّما جـاءَ إليهِ خائنٌ وَاشياً قرَّبَهُ واستوزَرَهْ
فإذا جـاءَ إليهِ ناصِحٌ شكَّ في نيّتِهِ فانتهرَهْ
مُستبدٍ باخلٍ في لحظةٍ ما ادَّخرناه لهُ وادَّخرَهْ
يهبُ المرءَ ومـا يملكُهُ وعلى الموهوبِ أن يستغفرَهْ
هزأ الشاعرُ منهم قائلاً : بلغَ السُّوسُ أصولَ الشجرَهْ
رحمةُ اللهِ على أسلافكمْ إنهم كانوا تُقاةً بَرَرَهْ
رَحمةُ اللهِ عليهمْ إنّهم لم يكونوا أمّةً مُنشطِرَهْ
إنَّ من تبكونَهُ يا سادتي كالذي تشكونَ فيكمْ بَطِرَهْ
إنّما بأسُ الأُلى قد سَلَفوا قتلَ النَّهمَةَ فيه والشَّرَهْ
فاحبسوا الأدمُعَ في آماقِكُمْ
واتركوا هذي العِظامَ النَّخِرَهْ
لو فعلتمْ فِعْلَ أجدادِكُم ما قضى الظالمُ منكم وَطَرَهْ
ما لكمْ تَشكونَ من مُحتكِمٍ
رُضتمُ ألسِنَكُمْ أنْ تشكُرَهْ ؟
وجعلتمْ منكمُ عسكرَهُ
وحلفتمْ أنْ تطيعوا عسكَرَهْ ؟

كيفَ لا يبغي ويطغى آمرٌ يَتّقي أشجعُكُمْ أنْ ينظُرَهْ ؟
ما استحالَ الحرُّ ليثاً إنّمـا
أُسْدُ الآجامِ صارتْ هِرَرَهْ
وإذا اللّيثُ وَهتْ أظفـارُهُ
أنشبَ السِّنَّوْرُ فيهِ ظُفُرَهْ !!

أيلول الشاعر

من قصيدة يصف بها المناظر الرائعة التي
مر بها في طريقه الى مونتريال .

ألحسنُ حولكَ في الوهادِ وفي الذرى
فانظرْ، ألستَ ترى الجمالَ كما أرى؟

«أيلولُ» يمشي في الحقولِ وفي الربى
والأرضُ في أيلولَ أحسنُ منظرا

شهرٌ يوزّعُ في الطبيعةِ فنّهُ   شجراً يُصفّقُ أو سناً متفجّرا
فالنورُ سحرٌ دافقٌ، والماءُ شعرٌ   رائقٌ، والعطرُ أنفاسُ الثرى
لا تحسبِ الأنهارَ ماءً راقصاً   هذي أغانيهِ استحالتْ أنهرا
وانظرْ إلى الأشجارِ تخلعُ أخضراً   عنها، وتلبسُ أحمراً أو أصفرا
تعرى وتُكسى في أوانٍ واحدٍ   والفنُّ في ما ترتديهِ وفي العُرا
فكأنما نارٌ هناكَ خفيّةٌ   تنحلُّ حينَ تهمّ أن تستشعرا
وتذوبُ أصباغاً كألوانِ الضحى   وتموجُ ألحاناً وتسري عنبرا

صورٌ وأطيافٌ تلوحُ خفيفةً   وكأنها صورٌ نراها في الكرى
للهِ من «أيلولَ» شهرٍ ساحرٍ   سَبَقَ الشهورَ وإن أتى متأخرا
من ذا يدبّجُ أو يحوكُ كَوَشْيِهِ   أو من يصوّرُ مثلما قد صورا؟
لمستْ أصابعهُ السماءَ فوجهُها   ضاحٍ، ومرَّ على الترابِ فنوّرا

ردَّ الجلالَ إلى الحيــاةِ وردَّني
من أرضِ نيويوركَ إلى أمّ القرى

لوس انجيلوس

القصيدة التي ألقاها الشاعر في « الحفلة التكريمية » التي أقيمت على شرفه في لوس انجلوس برعاية الجمعية السورية اللبنانية في فندق امباسادور .

أنا لستُ في دنيا الخيالِ ولا الكرى ... وكأنني فيها لِرَوْعَةِ ما أرى
يا قومُ هلْ هذي حقائقُ أم رؤىً ... وأنا؟ أصاحٍ أم شربتُ مخدِّرا ؟
لا تعجبوا من دهشتي وتحيُّري ... وتعجَّبوا إنْ لم أكنْ متحيرا
كيفَ التفتُّ رأيتُ آيةَ شاعرٍ ... لَبِقٍ تعمَّدَ أنْ يُجيدَ ليبهرا
مسحتْ بإصبعها الحياةُ جفونَهُ ... فرأى المحاسنَ ، فانتقى وتخيَّرا
ما «لوس انجلوس» سوى أنشودةٍ ... اللهُ غنَّاها فَجُنَّ لها الورى
خَلَعَ الزمانُ شبابَهُ في أرضِها ... فهو اخضرارٌ في السفوحِ وفي الذرى
أخذتْ مِنَ المُدُنِ العواصمِ مجدَها ... وجلالَها ، وحوتْ حلاواتِ القرى
هيَ واحةٌ للمتعبينَ ، وجنةٌ ... للعاشقينَ ، وملعبٌ لذوي الثرا

كفَّنتُ في نيويوركَ أحلامَ الصبا ... وطويتُها ، وحسبتُها لَنْ تنشرا
لكنني لمـا لمحتُ زهورَها ... شاهدتُ أحلامي تطلُّ من الثرى
تتنفسُ الهضباتُ في وادِ الضحى ... تبراً ، وفي الآصالِ مسكاً أذفرا
فالسحرُ في ضَحِكِ الندى مترقرقاً ... كالسحرِ في رَقْصِ الضياءِ معطَّرا
قلْ للأُلى وصفوا الجنانَ وأطنبوا ... ليستْ جنانُ الخلدِ أعجبَ منظرا
كلُّ الفصولِ هنا ربيعٌ ضاحكٌ ... فإذا ترى شهراً رأيتَ الأشهرا
إنْ كنتَ تجهلُ ما حكاياتُ الهوى ... فانصتْ لوشوشةِ النسيمِ إذا سرى
وانظرْ إلى الغبراءِ تُنبتُ سندساً ... وتأملِ الغدرانَ تجري كوثرا
واشربْ بعينيكَ الجمالَ فإنَّهُ ... خمرٌ بغيرِ يَدِ الهوى لَنْ تُعصرا
حاولتُ وصفَ جمالِها فكأنني ... ولدٌ بأنمله يحوشُ الأبحرا
واستنجدتُ روحي الخيالَ فخانني، ... وكبا جوادُ فصاحتي وتعثَّرا
أدركتُ تقصيري وضعفي عندما ... أبصرتُ ما صَنَعَ الإلهُ وصوَّرا
إني شهدتُ الحسنَ غيرَ مزيَّفٍ ... بِئسَ الجمالُ مزيفاً ومزوَّرا
أحببتُ حتى الشوكَ في صحرائها ... وعشقتُ حتى نخلها المتكبرا
أللابسَ الورقَ اليبيسَ تنسكاً ... والمشمخرَّ إلى السماءِ تجبُّرا
هو آدمُ الأشجارِ أدركَهُ الحيا ... لما تبدَّى عُرْيُهُ فتسترا
إبنُ الصحارى قد تحضَّرَ وارتقى ... يا حسنَهُ متبدياً متحضرا

وبدتْ غياضُ البرتقالِ فأشبهتْ   جلبابَ خَوْدٍ بالنُّضارِ مزرَّرا
من فوقها انتشرَ الضياءُ ملاءةً   من فوقِهِ جَوٌّ صفا وتبلورا
وكأنما تلكَ القصورِ على الربى   عَقْدٌ لغـــانيةٍ هوى وتبعثرا
لمــا تراءتْ من بعيدٍ خلتُها
سفناً، وخلتُ الأرضَ بحراً أخضرا
نَفَضَ الصباحُ سناهُ في جدرانهــا
وأتى الدجى فرأى منارَ للسرى
متألقاتٍ كابتساماتِ الرّضى   تُنسيكَ رؤيتُها الزمانَ الأعسرا
أنا شاعرٌ ما لاحَ طيفُ ملاحةٍ   إلا وهلَّلَ للجمالِ وكبرا
وزعتُ نفسي في النفوسِ محبةً   لا شاكياً ألماً ولا متضجرا
ومشيتُ في الدنيا بقلبٍ يابسٍ   حتى لقيتُ أحبتي فاخضوضرا
قد كنتُ أحسبني كياناً ضائعاً   فاذا أنا شخصٌ يعيشُ مكرَّرا
فكأنني ماءُ الغمامِ إذا انطوى   في الأرضِ ردَّتهُ نباتاً مثمرا
ما أكرمَ الأشجارِ في هذا الحمى   فيها لقاصدها البشاشةُ والقرى
تُقري الفقيرَ على خَصاصةِ حالِهِ   كرماً، كما تُقري الغنيَّ الموسرا
البذلُ دينُها سواءٌ جئتَها   متقدماً أمْ جئتَها متأخرا
فكأنها منكمْ تعلَّمت الندى   كيما تغيثُ الناسَ إنْ خطبٌ عرا

طفلة والقمر

دميةٌ حسناءُ تُغري النَّظرا   أم ملاكٌ طاهرٌ فوقَ الثّرى ؟
طفلةٌ ساذجــةٌ أطهرُ من   زهرةِ الرّوضِ وأنقى جوهرا
شَرُفَتْ أصلاً، وطابتْ عُنصراً،   وارتقتْ نفساً، وراقتْ منظرا
خَلَتْ قلباً أبى أن يحملَ   الحقدَ أو يكتمَ نَفساً كَدَرا
تجهلُ الشرَّ ولا تُحسنُ أن   تخدعَ الغيرَ ولا أنْ تغدرا
لا تبالي بيناتِ الدّهرِ إنْ   أقبلَ الدّهرُ بهــا أو أدبرا
يعظمُ الكونُ لدينا جرمُهُ   وتراهُ عندهــا قد صَغُرا
إنما الدُّنيا لديها كلُّها   أبواها وهمــا كلُّ الورَى
جُوذُرٌ لكنَّها آنِسَةٌ   لم يرُعْها ما يروعُ الجوذرا
سَرَقَ التُّفاحُ من وَجنتِها   واستعارَ الظّبيُ منها الحَوَرَا
ذاتُ شعرٍ ذهبيٍّ لَوْنُهُ   قد حَكَى نورَ الضُّحى مُنتشرا
وعيونٍ بالنُّهى عابثةٍ   جَذَبَ الغُنْجُ إليهــا الحَفَرا
شُغِفَتْ بالبَدرِ حباً فهي لا   تعرفُ الغمضَ إلى أن يُسفرا!

وقفتْ ترقُبُهُ في ليلةٍ   مثلِ حظِّ الأدباءِ الشُّعَرا
تكتمُ الظلماءُ من لألأها   أيُّ بدرٍ في الظلامِ استترا ؟
أرسلتْ نحوَ الدَّراري لفتةً   أذكرتْ تلكَ الدَّراري القمرا
وإذا بالبدرِ قد مزَّقَ عن   وجهِهِ بُرْقُعَهُ ثُمَّ انبرى
فأضاءَ الجوُّ والأرضَ معاً   نورُهُ الفضيُّ لمّا ظهرا
فرَنَتْ عن فاترٍ وابتسمتْ   عَنْ نظيمٍ قد أكنَّ الدُّرَرا
ثُمَّ قالتْ يا حبيبي مرحباً —   لا رآكَ الطرْفُ إلّا نيّرا
قفْ قليلًا أو كثيراً فعسى   نورُكَ الباهرُ يجلو البَصَرا
إن تغِبْ فالصبحُ عنديَ كالدُّجى   والدُّجى إنْ جئتَ بالصُّبحِ ازدرى
لمْ تُحِبُّ السَّترَ ليلاً فإذا   ذرَّ قرنُ الشَّمسِ عانقتَ الكرَى؟
أتخافُ الشمسَ أم أنتَ كذا   تعشقُ اللّيلَ وتهوى السَّهَرا ؟
ثُمَّ ناجتْ نفسَها قائلةً   أتُرى أبلغُ منه وَطَرا ؟
ليْتَ لي أجنحةً بل ليتني   نجمةٌ أتبعهُ أنّى سَرَى
وَهُمُ البعضُ فقالوا درهمٌ   ما أرى الدِّرْهَمَ إلّا حجرا
ولقد أضحكني زعمهمْ   أنهُ يُشبهُ في الحَجْمِ الثرى
زعموا ما زعموا لكنّا   هو عندي لعبةٌ لا تُشترى

طبيبي الخاص

بتُّ أرعى في الظلامِ الأنجما   ليسَ للعشّاقِ حظٌّ في الكرى
صَرَّعَتني نظرةٌ حتى لقدْ   كدتُ أن أحسدَ من لا يبصرْ
نظرةٌ قد أورثتْ قلبي الكمَدْ —   ما بلاءُ القلبِ إلا النَّظَرْ
لا رعاكَ اللهُ يا يومَ الأحدِ   لا ولا حيّاكَ عنّي المَطَرْ
أنتَ مَنْ أطلعتَ هاتيكَ الدُّمى   سافراتٍ فتنةً للشُّعَرا
هِمْتَ فيمنْ حَسُنَتْ صورتُها   مِثلما قد حَسُنَتْ منها الخِصالْ
أخجلتْ شمسَ الضحى طلعتُها   واستحى من لحظِها لحظُ الغزالْ
كلُّ ما فيها جميلٌ يُشتهى   ما بها عَيبٌ سوى فَرْطِ الجمالْ
لوْ رآها لائمي فيها لَمَا   لامني في حبِّها بلْ عذرا
ذاتُ حُسنٍ خدُّها كالوَرْدِ في   لَوْنِهِ والطِّيبِ في نكهتِهِ
زهرةٌ لكنها لم تُقطَفِ   وجمالُ الزَّهرِ في روضتِهِ
دُرَّةٌ ما خرجتْ من صَدَفِ   تُرْخِصُ الدُّرَّ على قيمتِهِ
بَضَّةُ الخدَّيْنِ والنَّهدَينِ ما   سَفَرَتْ إلا رأيتُ القَمَرا

ذاتُ شَعْرٍ مُسْبَلٍ كالأفعوانْ ... يتهادى فوقَ رِدْفٍ كالكثيبْ
وقوامٌ لَوْ رآهُ الغُصْنُ بانْ ... خجلاً من ذلك الغُصْنِ الرَّطيبْ
كادَ لولا ما بِهِ من عُنفوانْ ... يَقِفُ الوِرْقُ به والعَنْدليبْ
وجفونٌ أشبهتني سقما ... كَمَنَ السِّحْرُ بهـــا واستترا
تبعثُ الحبَّ إلى قلبِ الخليْ ... وهو لا يدري ولا يَستشعرُ
والهوى في بدنه عذبٌ شهيْ ... كلُّ شيءٍ بعدَهُ محتقرُ
كلُّ من لا يعرفُ الحبَّ شقيْ ... لا يرى في دَهرِهِ ما يُشكَرُ
يَصرفُ العُمْرَ ولكنْ سأما ... عبثاً يطلبُ أن لا يَضجرا
لم أكنْ أعرفُ ما معنى الهنا ... قبلَ أن أعرفَ ما معنى الغرامْ
يضحكُ النَّاسُ سروراً وأنا ... عابسٌ حتى كأني في خصامْ
عَجِبوا مني وقـــالوا علَنَا ... قد رأينا الصَّخْرَ في زي الأنامْ
أوشكوا أن يحسبوني صنما ... لو رأوا الأصنامَ تخفي كَدَرَا
لم أزلْ في رِبقَةِ اليأسِ إلى ... أن أعادَ الحبُّ لي بعضَ الرَّجا
كنتُ قَبْلَ الحبِّ أسري في ظلا ... مِ ولا ألقى لنفسي مخرجا
فجلاهُ الحبُّ عني فانجلى ... مثلما يجلو سَنا الشمسُ الدُّجى
باتَ قلبي بالأماني مُفعَمَا ... وهوَ قبلاً كانَ منها مقفرا
روَّعتني بالنَّوى بعد اللقـــاء ... وكذا الدُّنيا دنوٌ وافتراقْ

غَضِبَ الدَّهرُ على كأس الصفاء ... مُذْ رآهــــا فأبى ألا تُراقْ
ولو أنَّ الدَّهرَ يدري بالشقاء ... ساعدَ الصَّبَّ على نَيْلِ التلاقْ
لم أجدْ لي مُشْبِهاً تحتَ السَّما ... في شقائي ، لا ولا فوق الثَّرى
وأبي لو أن ما بي بالجبالْ ... أصبحتْ تهتزُّ من مرِّ النسيمْ
فاعذروني إن أكنْ مثلَ الخيالْ ... واعذلوني إنْ أكُنْ غيرَ سقيمْ
إنَّ دائي جاء من صادٍ ودالْ ... ودواءُ القلبِ في صادٍ وميمْ
باتَ صبري مثلُ جسمي عَدَمَا ... إنَّمـــا يصبرُ مَنْ قد قَدَرَا
ربَّ لَيْلٍ عادني فيه السهادْ ... ونأى عن مُقلتي طيبُ الكَرى
هاجتِ الذِّكرى شجوناً في الفؤادْ ... فبكى طرفي عقيقاً أحمرا
نبَّهَ الأهلَ بكائي والعبادْ ... فـــأتوا يستطلعونَ الخبَرَا
قلتُ داءٌ في الفؤادِ استحكما ... كادَ قلبي منهُ أن ينفطرا
صدَّقوا مـــا قلته ثم مضى ... واحدٌ منهمْ يَستدعي الطبيبْ
سارَ والكلُّ على جمرِ الغضا ... وأنا بينَ أنينٍ ونحيبْ
لم يَكُنْ إلا كَبَرْقٍ ومَضا ... وإذا (الدكتورُ) من مَهْدي قريبْ
قالَ للجمهورِ مـــاذا الاجتماع ... أخرجوا أو زدتموهُ خطَرَا
خَرَجَ الكلُّ فأمستْ غرفتي ... مثلَ قَلْبِ الطفلِ أو جيبِ الأديبْ
قَدَنَا يسألني عن علَّتي ... وأنا أسمعُ لكنْ لا أجيبْ

قَنَصَا الثَّوبَ فأبصرتُ التي   كادَ جسمي في هواها أن يغيبْ
خَلَعَتْ عنها لباسَ الحُكَمَا   فرأت عينايَ بَدراً نيِّرا
واعترتني دهشةٌ لكنَّها   دهشةٌ ممزوجةٌ بالفَرَحِ
كدتُ أن أخرجَ عن طورِ النُّهى   ربَّ سُكْرٍ لم يَكُنْ من قَدَحِ
يا لها من ساعةٍ لو أنَّهـا   بقيتْ كالدَّهرِ لم تُستقبحِ
عانقتني وأنا أبكي دمـا   وَهيَ تبكي لبكائي دُرَرَا
وَجعلْنا بعد أن طالَ العناقْ   نتناجى بأحاديثِ القلوبْ
بينما نحنُ على هذا الوفـاقْ   قُرِعَ البابُ فأوشكنا نذوبْ
فأشارتْ ليَ قد حانَ الفراقْ   فانقطعنا وارتدتْ ثوبَ الطبيبْ
أقبلَ القومُ فقالتْ كلُّ مـا   كانَ يشكو منهُ عنهُ قد سَرَى

•

بائعة الورود

مِنَ الفَرَنسيسِ قَيْدَ العَيْنِ صُورَتُها   عَذْراءُ قد مُلِئَتْ أجفانُها حَوَرا
كأنَّما وَهَبَتها الشمسُ صَفْحَتَها   وَجهاً وَحاكَتْ لها أسلاكُها شَعَرا
يدُ المَنِيَّةِ طاحتْ غِبَّ مَولِدِها   بأُمِّها ، وأبوها مَاتَ مُنتَحِرا
في قريةٍ من قُرى باريسَ ما صَغُرَتْ   عن الفتاةِ ولكنْ هَمُّها كَبُرا
والنَّفسُ تَعشقُ في الأهلينَ مَوطِنَها   وَلَيسَ تعشقُهُ يَحويهمُ حُفَرا
وَتَعظُمُ الأرضُ في عَينَيْكَ مُحتَرَماً   وَلَيسَ تَعظُمُ في عَينيكَ مُحتَقَرا
فغادرَتْها وَمَا في نَفْسِها أثَرٌ   منها ولا تَرَكَتْ في أهلِها أثَرا
إلى التي تَفتِنُ الدُّنيا محاسِنُها   وَحُسْنُ مَنْ سَكَنُوها يَفتِنُ البَشَرا
إلى التي تجمعُ الأضدادَ دارتُها   وَيحرُسُ الأمنُ في أرجائها الخَطَرا
إذا رآها تقيٌّ ظَنَّها «عَدَناً»   وإن رآها شقيٌّ ظَنَّها «سَقَرا»
تَوَدُّ شمسُ الضُّحى لو أنَّها فَلَكٌ   والأُفقُ لو طَلَعَتْ في أوْجِهِ قَمَرا
والغَرْبُ لو كانَ عُوداً في منابرِها   والشَّرقُ لو كانَ في جُدرانِها حَجَرا
في كلِّ قلبٍ هوًى منها كأنَّ لَهُ   في أهلِها صاحِباً، في أرضِها وطَرا

(باريسُ) أعجوبةُ الدُّنيا وجنَّتُها   وربَّةُ الحسنِ مطروقاً ومُبتكَرا

. . .

حلَّتْ عليها فلمْ تُنكِرْ زخارفَها   فطالما أبصرتْ أشباهَها صُوَرا
ولا خلائقَ أهليها وزيَّهُمُ   فطالما قرأتْ أخلاقَهُمْ سِيَرا
وإنّما أنكرتْ في الأرضِ وحدتَها   كذلكَ الطيرُ إمّا فارقَ الوكرا
يتيمةٌ مالها أمٌّ تلوذُ بِهـــا   ولا أبٌ إنْ دعتهُ نحوَها حضَرا
غريبةٌ يقتفيها البؤسُ كيفَ مشتْ
ما عزَّ في أرضِ «باريسٍ» مَنِ افتقرا
مرَّتْ عليها ليالٍ وهيَ في شُغُلٍ   عن سالفِ الهمِّ بالهمِّ الذي ظهرا
حتَّى إذا عضَّها نابُ الطَّوَى نفرَتْ   تستنزلُ الرِّزقَ فيها الفردَ والنَّفَرا
تجني اللُّجَيْنَ ويجني الباذِلوهُ لها   مِنْ كفِّها الوردَ منظوماً ومُنتثِرا
لا تتَّقي اللهَ فيهِ وهوَ في يدِها   وتتَّقي فيهِ فوقَ الوجنةِ النَّظَرا
تغارُ حتّى مِنَ الأرواحِ ساريةً   فلو تمرُّ قبولٌ أطرقتْ خفَرا
أذالتِ الوردَ قانيهِ وأصفرَهُ   كيما تصونَ الذي في خدِّها نضِرا
حمتهُ عنْ كلِّ طرفٍ فاسقٍ غزِلٍ   لو استطاعتْ حمتهُ الوهمَ والفِكَرا
تُضاحِكُ الخلقَ لا زهْواً ولا لعِباً   وتجحدُ الفقرَ لا كِبْراً ولا أشَرا

فإنْ خلتْ هاجتِ الذِّكرى لواعِجَها
فاستنفدتْ طرفُها الدَّمعَ الذي ادَّخرا

. . .

تعلَّقتهُ فتىً كالغصنِ قامتُهُ   حلوَ اللِّسانِ أغرَّ الوجهِ مُزدَهِرا
وهامَ فيها ترِيهِ الشَّمسَ غُرَّتُها   والفجرَ مرتصِفاً في ثغرِها دُرَرا
إذا دنا رغبتْ أنْ لا يفارقَها   وإنْ نأى أصبحتْ تشتاقُ لو ذُكِرا
تُغالِبُ الوجدَ فيهِ وهوَ مُقترِبٌ   وتهجرُ الغمضَ فيهِ كلَّما هجَرا
كانتْ توقَّى الهوى إذ لا يخامرُها   فأصبحتْ تتوقَّى في الهوى الحَذَرا
قد عرَّضتْ نفسَها للحبِّ واهيةً   فنالَ منها الهوى الجبّارُ مقتدِرا
والحبُّ كاللِّصِّ لا يدريكَ موعِدَهُ   لكنَّهُ قلَّما، كالسّارقِ، استترا

. . .

وليلةٍ مِنْ ليالي الصَّيفِ مُقمِرةٍ   لا تسأمُ العينُ فيها الأنجمَ الزُّهُرا
تلاقَيا فشكاها الوجدَ فاضطربتْ   ثمَّ استمرَّ فباتتْ كالذي سُحِرا
شكا فحرَّكَ بالشَّكوى عواطِفَها   كما تُحرِّكُ كفُّ العازفِ الوتَرا
وزادَ حتّى تمنَّتْ كلُّ جــارِحَةٍ
لو أصبحتْ مسمعاً أو أصبحتْ بصَرا

رانَ الهيامُ على الصبَّيْنِ فاعتنقا   لا يملكانِ النُّهى وِرْداً ولا صَدَرا
«وكانَ ما كانَ مما لستُ أذكُرُهُ»
تكفي الإشارةُ أهلَ الفِطنَةِ الخبَرا

. . .

هامَتْ بهِ وهيَ لا تدري لِشقوَتِها
بأنّهـــا قد أحبَّتْ أرقَماً ذكرا
رأتهُ خشفاً فأدنتْهُ فراءَ بها   شاةٌ فأنشبَ فيها نابَهُ نمِرا
ما زالَ يؤمنُ فيها غيرَ مكترثٍ   بالعاذلينَ فلمّا آمنَتْ كفرا
جنى عليها الّذي تخشى، وقاطعَها
كأنّما قدْ جنَتْ ما ليسَ مُغتفرا
كانتْ وكانَ يرى في خدِّها صعَراً
عنهُ فباتَتْ ترى في خدِّهِ صعرا
فكلّما استعطفَتْهُ ازورَّ محتدِماً   وكلّما ابتسمَتْ في وجهِهِ كشرا
قالَ النّفارُ و«فرجيني» على مضضٍ
تجرّعُ الأنقعَيْنِ: الصّابَ والصّبِرا

. . .

قالَتْ، وقدْ زارَها يوماً، مُعرّضةً
متى، لعمرُكَ، يجني الغارسُ الثمرا؟
كم ذا الصُّدودُ ولا ذنبٌ جنتْهُ يدي
أرجو بكَ الصّفوَ لا أرجو بكَ الكدرا
تركتني لا أذوقُ المـــاءَ من وَلَهي
كما تركتَ جفوني لا تذوقُ كرى
أشفِقْ عليَّ ولا تنسَ وُعودَكَ لي   فإنَّ ما بي لَوْ بالصّخرِ لانفطَرا
أطالَتِ العتبَ ترجو أنْ يرقَّ لها   فؤادُهُ فأطالَ الصمتَ مختصِرا
وأحرجَتْهُ لأنَّ الهمَّ أحرجَها   وكلّما أحرجَتْهُ راغَ معتذِرا
وضاقَ ذرعاً بما يُخفي فقالَ لها   إلى مَ ألزمُ فيكِ العيَّ والحصَرا
أهواكِ صاحبةً... أمّا اقترانُكِ بي
فليسَ يخطُرُ في بالي ولا خطَرا
أهوى رضاكِ ولكنْ إنْ سعَيتُ لهُ   أغضبتُ نفسي والدّيّانَ والبشَرا
عنيتُ مالي مِنْ قلبيْنِ في جسَدي   وليسَ قلبي إلى قسمَيْنِ مُنشطِرا
تُطالبيني فؤادي وهوَ مرتَهنٌ
في كفِّ غيرِكِ، رُمتِ المطلبَ العسِرا

يكفيكِ أنّي فيكِ خنتُ إمرأتي !   ولم يخنْ قلبُها عهدي ولا خفَرا

قدْ كانَ طيشاً هيامي فيكِ بلْ نزقاً
وكانَ حبُّكِ ضعفاً منكِ بلْ خوَرا

قالتْ متى صرتَ بعلاً ؟ قالَ منْ أمدٍ
لا أحسبُ العمرَ إلّاهُ وإنْ قصُرا

يا هولَ ما أبصرَتْ يا هولَ ما سمعتْ
كادتْ تكذّبُ فيهِ السّمعَ والبصَرا

لولا بقيّةُ صبرٍ في جوانِبها   طارتْ لهُ نفسُها منْ وقعهِ شذَرا

يا للخيانةِ ! صاحتْ وهيَ هائجةٌ   كما تهيّجَ ليثٌ بابنِهِ وُتِرا

الآنَ أيقنتُ أنّي كنتُ واهمةً   وأنَّ ما كلُّ برقٍ يصحَبُ المطَرا

وهبتَ قلبكَ غيري وهوَ ملكُ يدي
ما خفتَ شرعاً ولا باليتَ مزدجرا

ليستْ شرائعُ هذي الأرضِ عادلةً
كانَ الضّعيفُ ولا ينفكُّ محتقرا

قدْ كنتُ أخشى يدَ الأقدارِ تصدعُنا
وكانَ أجدرَ أنْ أخشاكَ لا القدَرا

وصلْتَني مثلَ شمسِ الأفقِ ناصعةً   وعفتَني مثلَ جنحِ اللّيلِ معتكِرا

كما تعافُ السّراةُ الثّوبَ قدْ بليتْ
خيوطُهُ والرّواةُ الموردَ القذِرا

خفتَ الأقاويلَ بي قدْ نامَ قائلُها
هلّا خشيتَ انتقامي وهوَ قدْ سهِرا

يا سالبي عفّتي منْ قبلِ تهجرَني(١)
أرْدُدْ علـيَّ عفافي وارددِ الطُّهرا

هيهاتَ هيهاتَ ما منْ عفّتي عوَضٌ
لاحَ الرّشادُ وبانَ الغيُّ وانحسرا . . .

. . .

وأقبلتْ نحوهُ تغلي مراجلُها   كأنّها بركانُ نارٍ وانفجرا

في صدرِها النّارُ ، نارُ الحقدِ ، مضرمةٌ
لكنّما مقلتاها تقذفُ الشّررا

وأبصرَ النّصلَ تخفيهِ أناملُها   فراحَ يركضُ نحوَ البابِ منذعِرا

---

(١) التقدير : من قبل أن تهجرني .

لكنَّها عاجلَتْهُ غيْرَ وانِيَةٍ   بطَعنَةٍ فجَّرتْ في صَدرِهِ نَهرا

فخَرَّ في الأرضِ جِسماً لا حَراكَ بِهِ

لكنَّ «فرجينَ» ماتَتْ قبلَما احتُضِرا

جُنَّتْ من الرُّعبِ والأحزانِ فانتَحَرت

ما خَشِيَتِ الموتَ لكنْ خافَتِ الوَضَرا

. . .

كانَتْ قُبيلَ الرَّدى مَنسيَّةً فغَدَت   بَعدَ الحِمَامِ حديثَ القَومِ والسَّمَرا

تَتلُو الفَتاةُ عِظَاتٍ في حِكايَتِها   كمَا يُطالِعُ فيها النَّاشِيءُ العِبَرا

الغبطة فكرة

أقبلَ العيدُ، ولكنْ ليسَ في الناسِ المسرَّةْ

لا أرى إلّا وُجوهاً كالحاتٍ مكفهرَّةْ

كالرُّكايا لم تَدَعْ فيها يدُ الماتِحِ قطرَةْ

أوْ كَمِثلِ الرَّوضِ لم تترُكْ به النكباءُ زهرَةْ

وعيوناً دَنِقَتْ فيهـا الأماني المستحِرَّةْ

فَهْيَ حَيْرى ذاهلاتٌ في الذي تهوى وتكرَهْ

وخدوداً باهتاتٍ قد كساها الهمُّ صُفرَةْ

وشفاهاً تحذرُ الضحكَ كأنَّ الضحكَ جمرَةْ

ليسَ للقومِ حديثٌ غيرُ شكوى مستمرَّةْ

قد تَساوى عندهُمْ لليأسِ نفعٌ ومضرَّةْ

لا تَسَلْ مـاذا عراهُمْ كلُّهم يجهلُ أمرَهْ

حائرٌ كالطائرِ الخائفِ قد ضيَّعَ وكرَهْ

فوقهُ البازيُّ ، والأشراكُ في نجدٍ وحفرَهْ
فهو إنْ حطَّ إلى الغبراء شكَّ السهمُ صدرَهْ
وإذا مـــا طارَ لاقى قشعمَ الجوِّ وصقرَهْ
كلُّهم يبكي عَلَى الأمسِ ويَخشى شرَّ «بُكرَهْ»
فهمُ مثلُ عجوزٍ فقدتْ في البحرِ إبرَهْ

***

أيُّهـــا الشاكي الليالي إنَّما الغبطةُ فكرَهْ
ربَّما استوطَنَتِ الكوخَ وما في الكوخِ كسرَهْ
وخلتْ منهـــا القصورُ العالياتُ المشمخرَّهْ
تلمسُ الغصنَ المعرّى فإذا في الغُصنِ نُضرَهْ
وإذا رفَّتْ على القفْرِ استوى ماءً وخضرَهْ
وإذا مسَّتْ حصـــاةً صَقَلَتْها فهيَ دُرَّهْ
لكَ ، ما دامتْ لكَ ، الأرضُ وما فوقَ المجرَّهْ
فـــإذا ضيَّعتَها فالكونُ لا يَعدِلُ ذرَّهْ
أيُّهـــا الباكي رويداً لا يسدُّ الدمعُ ثغرَهْ

أيُّها العابسُ لن تُعطى على التقطيبِ أجرَهْ
لا تكنْ مُرّاً ، ولا تجعلْ حياةَ الغيرِ مُرَّهْ
إنَّ من يبكي لهُ حَولٌ على الضحك وقدرَهْ
فتهلَّلْ وترنَّمْ ، فالفتى العابسُ صخرَهْ
سكنَ الدهرُ وحانتْ غفلةٌ منهُ وغِرَّهْ
إنَّهُ العيدُ . . . وإنَّ العيدَ مثلُ العُرسِ مَرَّهْ

قطرة الطل

إنْ ترَ زهرةَ وردٍ فوقها للطلِّ قطرَهْ
فتأمّلها كلُغزٍ غامضٍ تجهلُ سرَّهْ
ولتكنْ عينكَ كفّاً وليكُنْ لمسُكَ نظرَهْ
ليستِ الحمراءُ جمرَهْ، لا ولا البيضاءُ درَّهْ

***

ربَّ روحٍ مثلُ روحي عافتِ الدنيا المضرَّهْ
فارتقتْ في الجوِّ تبغي منزلاً فوقَ المجرَّهْ
علّها تحيا قليلاً في الفضاءِ الحرِّ حرَّهْ
ذرّفتْها مقلةُ الظلماءِ عندَ الفجرِ قطرَهْ

•

الكنار الصامت

نسيَ الكنارُ نشيدهُ ... فتعالَ كي ننسى الكنارْ
وليقذفنَّ بـهِ الملالُ ... من القصورِ إلى القفارْ
ولترمينَّ بريشهِ ... للأرضِ عاصفةُ النِفارْ
ولتستعضْ عنه بطيرٍ ... من لُجَينٍ أو نُضارْ
لا، لا، فإن سكتَ الكنا ... رُ فلم يزلْ ذاكَ الكنارْ
أو كانَ فارقهُ الصُدا ... حُ فلم يفارقْهُ الوقارْ
صمتُ الكنارِ، وإنْ قسا، ... خيرٌ من النَغَمِ المُعارْ
صبراً فسوف يعودُ لا ... تغريدِ إنْ عـادَ النهارْ

•

اليك عني

كَمْ تستثيرُ بِيَ الصبابةَ والهوى   عني إليكَ، فإنَّ قلبيَ من حجرْ
مالي وللحسناءِ أُغري مُهجتي   بوِصالها، والشيبُ قد وخطَ الشعَرْ؟
كم «بالجزيرةِ» لو يتاحُ ليَ الهوى   من غادةٍ تحكي بِطَلعتها القمرْ؟
ولكَمْ بها من جدولٍ وحديقةٍ   من صَنعةِ الرحمنِ لا صُنعِ البَشرْ
فبِها اللواتي إنْ رَمَتْ ألحاظَها   شلَّتْ يدَ الرامي وقطَّعتِ الوترْ
قد كانَ لي في كلِّ خودٍ مطمعٌ   ولكلِّ رائعةِ المحاسنِ بي وَترْ
أيامُ شعري كالدُّجى حلولكٌ،   أيامُ عيشي لا يُخالطهُ كدَرْ

***

دَرْني وأشجاني، وجسمي، والضَّنى،   ويدي، وأقلامي، وطَرْفي، والسهرْ
أأبيتُ ألهو والهمومُ تُحيطُ بي   وأنامُ عن قومي، وقومي في خطَرْ؟
صوتُ المصفِّقِ موعدٌ ما بيننا   ماذا أقولُ لهمْ إذا الديكُ استحَرْ؟

أما أنا ...

لا تنثني في الرَّوضِ أغصانُ الشجَرْ
حتى تُدغدِغَها النَّسائمُ في السَّحَرْ
وأنا كذلكَ لا يُفارقني الضَّجَرْ
حتى تُداعِبَ لِمَّتي بِيَدَيها

***

الشمسُ تُلقي في الصباحِ حِبالَها
وتبيتُ تنظرُ في الغديرِ خيالَها
أمّا أنا فإذا وقفتُ حِيالَها
أبصرتُ نورَ الشمسِ في خدَّيها

***

الطَّودُ يقرأُ في السماءِ الصافيةْ
سفراً، يجيلُ متْنهُ والحاشيةْ

أمّـــا أنا فإذا فقدتُ كتابيَهْ
أتـــلو كِتابَ الحبِّ في عينيْها

***

الطّيرُ إنْ عطِشَتْ ولجّ بها الظّما
هبطَتْ إلى الأنهارِ من علوِ السّما
أمّـــا أنا فإذا ظمِئْتُ فإنّما
ظمأي الشّديدُ إلى لمى شفتيْها

***

النّدُّ يطلُبُهُ الخلائقُ في الرّبى
بَيْنَ الوُرُودِ وفي نُسَيْماتِ الصّبا
أمّا أنا فالنّدُّ مِنْ نَشْرِ الكبا
عِنْدي، ألذي قدْ فاحَ مِن نَهْدَيْها

***

الرّاحُ تصرِفُ ذا العَناء عنِ العَنا
وتَطيرُ بالصُّعْلُوكِ في جوّ المُنى

فيَرى الكواكِبَ تحتَهُ، أمّا أنا
فتظلُّ أفكاري تحومُ عليْها

***

فيهـــا ومِنْها ذُلّي وسَقامي
وبهـــا غرامي، القاتِلي؛ وهُيامي
أشتاقُهـــا في يقظتي ومَنامي
وأطولُ شوقِ المستهامِ إليْهـــا

ما زال في الارض حياً

قال الشاعر هذه القصيدة عندما جاءه نبأ وفاة صديقه الأديب الكبير الخالد أمين الريحاني وقد تأثر بالنبأ المفاجيء .

أيُّ خَطْبٍ دها فباتَ المهجرْ   مثلَ حقلٍ مرّتْ عليهِ صرصرْ
ضربتْ عَقْدَ زهرِهِ فتبعثرْ   ومشتْ فوقَ عشبِهِ فتنكرْ
بَعْدَ أن كانَ عبهرياً نديّا

•

قد سمعنا ، يا ليتَنا لمْ نسمعْ   نبأً زعزعَ القلوبَ وضعضعْ
فجزعنا ، وحقنا أنْ نجزَعْ   لفراقِ الفتى الأديبِ الألمعْ
وذرفنا دمعاً سخيناً سخيّا

•

قد بكينا كما بكى لبنانُ   وحنتنا كأرزِهِ الأحزانُ
ليسَ بَعْدَ الأمينِ ثَمَّ مكانُ   غيرَ مستوحشٍ ولا إنسانُ
ذو وفاءٍ لم يبكِ ذاكَ الوفيّا

•

ألمعيٌّ قد غابَ تحتَ الرغامِ   إنمـا لم يَغِبْ عن الأفهامِ
فهو باقٍ فينا مدى الأيامِ   فعليهِ تحيتي وسلامي
عاشَ حراً ، وماتَ حراً أبيّا

•

لم يعفِّرْ جبينَهُ في الترابِ   لم يوارِبْ في موقفٍ ، لم يُحابِ
لم يَبِعْ قومَهُ من الأغرابِ   لم يَسِرْ في سوى طريقِ الصوابِ
لم يكن خائناً ولا إمعيّا

•

عاشَ في الأرضِ مثلَ زهرِ البنفسجْ   كلما زادَ فَوْكُهُ يتأرّجْ
وكنجمٍ في بُرْجِهِ يتوهّجْ   لا يبـالي أحبَّهُ مَنْ أدلجْ
أم أحبَّ الليلَ البهيمَ الدجيّا

•

فابسمي فوقَ قبرِهِ ، يا نجومُ   وترنَّمْ مِنْ حولِهِ ، يا نسيمُ
فالدفينُ الذي هنـاكَ يقيمُ   بَطَلٌ مصلحٌ وروحٌ كريمُ
ولسانٌ نخالُهُ نبويّا

•

وتنصّتْ إذا رأيتَ الأقاحي   جاثياتٍ في هيكلِ الأرواحِ
قائلاتٍ بلهجةِ النصّاحِ   أيها الناسُ ، بعضَ هذا النواحِ
« فأمينٌ » ما زالَ في الأرضِ حيّا

التمثال

من المرمرِ المسنونِ صاغوا مثالَهُ ... وطافوا بهِ مِنْ كلِّ ناحيةٍ زُمَرْ
وقالوا ـــ صنعناه لتخليدِ رسمهِ ، ... فقلتُ ـــ ألا يفنى كما فَنِيَ الأثَرْ ؟
وقالوا ـــ نصبناه اعترافاً بفضله ، ... فقلتُ إذن مَنْ يعرفِ الفضلَ للحجَرْ ؟
وقالوا ـــ غنيٌّ كانَ يسخو بمالِهِ ... فقلتُ لهم هل كانَ أسخى من المطَرْ ؟
وقالوا ـــ قويٌّ عاش يحمي ذِمارَنا ... فقلتُ لهم هل كانَ أقوى من القدَرْ ؟
أكانَ غنياً أمْ قوياً فـــإنهُ ... بمالكمُ استغنى وقوتِكمْ ظفَرْ
فَلَمْ يَتَعشقْكمْ ولا همتمْ بهِ ... كما خلتمْ لكنهُ النفعُ والضررْ
ولم ترفعوا التمثالَ للبأسِ والندَى ... ولكنْ لِضعْفٍ في نفوسكمُ استتَرْ
فلستمْ تحبونَ الغنيَّ إذا افتقرْ ... ولستمْ تحبونَ القويَّ إذا اندحرْ
رأيتكمُ لا تعرجونَ بروضةٍ ... إذا لم يكنْ في الروضِ فيءٌ ولا ثمرْ
ولا تعلفونَ الشاةَ إلا لتسمنوا ، ... ولا تقتنونَ الخيلَ إلا على سَفَرْ
إذا كانَ حبُّ الفضلِ للفضلِ شأنكمْ ... ولم تخطئوا في الحسِّ والسَّمْعِ والبَصَرْ
فما بالكُمْ لم تُكرموا الليلَ والضُّحى ... ولم تنصبوا التمثالَ للشمسِ والقمَرْ ؟

بلاء أم نعمة

أُحِبُّ مُعانقَةَ النرْجسِ ... لِعَيْنَيْكِ يا ابنَةَ كُولُمْبِسِ
وأهوى الشقيقَ ولَثْمَ العقيقِ ... لِخَدِّكِ والثغرِ الألعسِ
أعِنْدَكِ إنْ غِبتِ عنْ ناظري ... مَشَيْتُ منَ الصُّبحِ في حِندِسِ
وأنَّ الظَّلامَ عَلَى هَوْلِهِ ... إذا جئتِ حالَ الى مُشْمِسِ
وفي الصَّدرِ قلباً ولا كالقلوبِ ... متى شئتِ يَسْعَدِ أوْ يَتْعَسِ
وَدِدْتُ الإفاضةَ قبلَ اللقاء ... فَلَمَّا لَقيتُكِ لَمْ أنبسِ
وَبِتُّ وإياكِ في مَعزلٍ ... كأنّي وإيّاكِ في مَجْلِسِ
ولو أنَّ ما بِيَ بالطَّوْدِ دُكَّ ... وبالأسْدِ الوَرْدِ لم يَفرِسِ
هَمَمْتُ فأنكرَني مِقْوَلي ... وَشاءَ الغَرامُ فلم أهجِسِ
كأنّيَ لَسْتُ أميرَ الكلامِ ... ولا صاحِبَ المنطقِ الأنفَسِ
جلالُكِ ، والليلُ في صمتِهِ
فَلا غَرْوَ أنْ رُحْتُ كالأخرسِ

...

وَمرّتْ بنا ساعةٌ خِلْتُنا … خلعْنا الجُسومَ عن الأنفُسِ
وأنّا مِنَ الرّوضِ في جنّةٍ … وأنّا مِنَ العُشْبِ في سُنْدُسِ
كذاكَ الهوى فِعْلُهُ في النُّفوسِ … كفِعْلِ المُدامةِ في الأرْؤُسِ
تَنَبَّهَ فيها وفيَّ الهوى … فلوْ نَعِسَ النَّجْمُ لم ننعَسِ
وكلُّ فؤادٍ شديدُ الغرامِ … إذا رِضْتَهُ بالهوى يَسْلَسِ
فمالتْ فطَوَّقَها ساعِدي … مُنَعَّمَةً بَضَّةَ المَلْمَسِ
وإنَّ العَفافَ لفي بُرْدِها … وإنَّ الإباءَ لفي مِعْطَسي
وقلتُ وكفّي في كفِّها … ألا صرّحي ليَ أو فاهمِسي
بَلاءٌ هوَ الحبُّ أم نعمةٌ … أجابَتْ: تجلَّدْ ولا تيأسِ

الحاجة الى الخرس

مـــا كانَ أحوجَني يوماً إلى أذُنٍ … صمّاءَ إلّا عن المحبوبِ ذي الأُنسِ
كَي لا يُصدِّعَ رأسي صَوتُ نائحةٍ … ولا تُقطِّعَ قلبي أنّـــةُ التَّعِسِ
ولا يُمزِّقَ نفسي الأدعِياءُ ولا … ذمُّ الأفاضِلِ مِن ذي خِسّةٍ شَرِسِ
أقولُ هذا عَسى حُرٌّ يقولُ معي … ما كانَ أحوجَ بعضَ النّاسِ للخَرَسِ

سبيل التوحيد

مَـا كانَ أحوجَ سوريّا إلى بَطَلٍ
يَرُدُّ بالسّيف عَنْها كلَّ مُفترسِ
ولا يَزالُ بهـا والسّيفُ في يَدِهِ
حَتّى يُطَهّرَها مِن كلِّ ذي دَنَسِ
ويَجعَلُ الحبَّ دينَ القاطِنينَ بهـا
دينٌ يُقَرِّبُ بَينَ «البَيتِ» والقُدْسِ
حَتى أرى ضاربَ النّاقوس يُطربُهُ
صَوتُ الأذينِ، وهذا رنّةُ الجَرَسِ

لو أستطيع

لو أستطيعُ سكبتُ رو   حي خمـرةً في كاسها
حتى إذا حالَ النوى   بيني وبينَ كِناسها
وتجاهلتْ أو أنكرتْ   أمري لدى جلاّسها
أطللتُ مِنْ أجفانهـا   وجريتُ مَعْ أنفاسها !

الأشباح الثلاثة

راودني النومُ وما برحا   حتى طأطأتُ له راسي
أطبقتُ جفونيَ فانفتحا   باب الرؤيا والوسواسِ
أبصرتُ كأنيَ في موضعْ   ما فيه غيرُ الأرواحِ
فوقفتُ بعيداً أتطلّعْ   فلمحتُ ثلاثةَ أشباحِ
ولدٌ يتهادى في العشرِ   وفتًى في بُرْدِ العشرينا
والثالثُ شيخٌ في طمرِ   ذو جسمٍ يحكي العُرجونا(1)
وإذا بالأوّلِ يقتربُ   مني كالطائرِ في الوثْبِ
فشعرتُ كأنيَ أضطربُ   وكأنَّ خطاهُ على قلبي
يا نفسي ما هذا الفرَقُ ؟   لا رمحٌ معه ولا نَبلُ
ولمـاذا الخشيةُ والقلقُ   والخَلْقُ أحبهمُ الطفلُ
وإذا بالطفلِ يخاطبني   بكلامٍ لا يتكلّفهُ
ويمازحني ، ويداعبني ،   فكأني شخصٌ يعرفهُ

(1) العُرجون : أصل العِذْق الذي يعوج ويبقى على النخل يابساً

« ما بالكَ منكمشاً كذا ؟   قُمْ تلعبْ في فيءِ الشجَرِ
ونهزُّ الأغصنَ والعُمُدا   ونذودُ الطيرَ عن الثمَرِ
أو نصنعُ خيلاً من قصَبِ   أو طيّاراتٍ من ورَقِ
ومُدًى وسيوفاً من خَشَبِ   ونجولُ ونركضُ في الطُرُقِ
أو نأتي بالفحمِ القاتِمْ   ونصوِّرُ فوقَ الأبوابِ
تنّيناً في بحرٍ عـائمْ   أو ليثاً يخطرُ في غابِ
أو كلباً يعدو ، أو جَمَلا   يرعى ، أو نهراً ، أو هضبَهْ
أو ديكاً ينقدُ ، أو رَجُلا   يمشي ، أو مهراً ، أو عربَهْ
أو نجبلُ مـاءً وترابا   ونشيدُ بيوتاً وقبابا
أو نجعلُ منهُ أنصابا   أو نصنعُ حلوى وكبابا »
مثّلتُ الطفلَ ودنياهُ   فأحبّتْ نفسي دنيـاهُ
ووددتُ لو أنيَ إيّاهُ   بلْ خلتُ كأنيَ إيّاهُ
فضحكتُ ولجَّ بيَ الضحكُ   حتى استلقيتُ على ظهري
فاستيقظَ في الولَدِ الشكُّ   فتوقفَ يعجبُ من أمري
ويقولُ : أيا هذا قدْكا   فوحقِّكَ ذا الطيشُ الأكبرْ
ما تضحكُ مني بل منكا   إيّاكَ أنا لو تتذكرْ !

وتوارى عني واحتجبا   كالموجةِ في عرضِ النهرِ
فتضايقَ قلبي واضطربا   وارتجّتْ روحي في صدري

٢

وإذا الشبحُ الثاني أقبلْ   يترنّحُ مثلَ المخمورِ
أالليلُ على الدنيا مُسدَلْ   وعليهِ وشاحٌ من نورِ
معصوبُ المقلةِ والدربُ   وعرٌ وكثيرُ الآفاتِ
كسَفينٍ ليسَ لها ربُّ   تجري في بحرِ الظلماتِ
ماذا في الأفقِ؟ فقد وقفا   يتـأمّلُ فيه ويبتسمُ
هل لاحَ له وجهٌ عرفا   أم هزَّ جوارحهُ نغمُ ؟
أم أبصر آلهــةَ الحبِ   تدعوهُ إليهـا إيماء
لا شيءَ في الأفقِ الرحبِ   وكأنَّ هنالكَ أشياء
ألطيرُ تغني للزّهرِ   ويظنُّ الطيرَ تساجلُهُ
والزهرُ ترحّبُ بالفجرِ   ويظنُّ الزهرَ تغــازلُهُ
ونظرتُ إليه في الـبرّ   يتمنى لوْ خاضَ البحرا
ونظرتُ إليه في البحرِ   يتمنى لو بَلَغَ البرّا
يتأفّفُ من بطءِ الدهرِ   والدهرُ يسيرُ به وثْبا
وينامُ ليحلـمَ بالفجرِ   والفجرُ يضيءُ له الدربا

ويسائِلُ عن كأسِ الخمرِ   ويسائلهُ عنهـا الناسُ
في الليلِ، وفي وضحِ الفجرِ   والخمرةُ فيه والكأسُ
فصبرتُ ولازمتُ الصمتا   حتى دانى الظلَّ الظلُّ
فأشرتُ إليهِ : من أنتا ؟   فأجابَ : أنا ذاكَ الطفلُ
ومضى كالظلّ إذا انتقلا   وأنا أرجو لو لم يمضِ
فأعدتُ لنفسي ما ارتجلا   فتعجّبَ بعضي من بعضي

٣

ألشمسُ تزلُّ عن الأفقِ   كالروحِ المحتضرِ الساجي
غمرَتها أمواجُ الغسَقِ   فتوارتْ خلفَ الأمواجِ
والغيمُ الأسودُ يحتشدُ   طبقاً في الجوِّ على طَبَقِ
والليلُ يطولُ ويطّردُ   والأرضُ كسارٍ في نَفَقِ
وإذا شيخٌ في صحراء   كالزورقِ في عرضِ البحرِ
أعياهُ الصلحُ مع المـاء   وأضاعَ الدربَ إلى البرِ
يمشي في الأرضِ على مَهَلٍ   وعلى حذرٍ، لكنْ يمشي
كالشاةِ تُساقُ إلى القتْلِ   بعصا جبّارٍ ذي بطشِ
يا شيخُ . . لماذا لا تقِفُ ؟   دميتْ رجلاكَ من الركْضِ
فأجابَ بصوتٍ يرتجفُ   ألأرضُ تسيرُ على الأرضِ!

يا شيخُ ... رويداً فالبدرُ سيضيءُ الدربَ فتستهدي
فأجابَ : ويتلوهُ الفجرُ لكنْ سيضيءُ لمن بَعْدي
أبلَذُّ لغصنٍ منكسرٍ عرّتهُ الريحُ من الورَقِ
أن يبصرَ في ضوءِ القمرِ ما كان عليه على الطرُقِ ؟
ما لذّةُ مَيْتٍ في الرمسِ بالزّهرِ الفوّاحِ العطرِ
نورٌ لا يشرقُ في النفسِ كَغَبَاءٍ في أذُنِ الحجرِ
ما استخفّتْ عني الأفلاكُ والشهبُ، بل استخفى حبّي
لم تملأ دربي الأشواكُ إنّ الأشواكَ لفي قلبي
يا شيخُ: شجاني ما قلتا وزرعتَ بنفسي آلامَكْ
من أنتَ ؟ أجابَ: أنا أنتا أنا ذاتُكَ تمشي قدّامَكْ

. . .

كم أبحثُ بينَ الأجرامِ عني وأنقّبُ في الأرضِ
أحلامي تطمرُ أحلامي بعضي مدفونٌ في بعضي
لم أبصرْ ذاتي بالأمسِ في لوحِ زجاجٍ أو ماءِ
بل لاحتْ نفسي في نفسي فهي المرئيّةُ والرائي

يا نفس

يا نفسُ لو كنتِ ترينَ الشؤونْ كما يراهـا سائرُ النّاسِ
لما رماني بعضهم بالجنونْ ولم أجدْ في الناسِ من باسِ

. . .

بالأمسِ مرّ الموكبُ الأكبرُ فيهِ الفتى الراكبُ والناعلُ
وأقبلتْ غيدُ الحمى تخطِرُ يهتفنَ : عـادَ البطلُ الباسلُ
مـا لكِ يا هذهِ لا تهتفينْ لصاحبِ الدولةِ والباسِ ؟
فقلتِ لي ضاحكةً تسخرينْ: ويلكَ ! هذا قاتلُ الناسِ !

. . .

ومجلسٍ دارتْ بهِ الأكؤسُ فشربَ القومُ ولم تشربي
وامتلأتْ بالطربِ الأنفسُ وأنتِ في صمتكِ لم تطربي
كأنّما غيّبكِ الحِندسُ أو تاهت اللذّاتُ في سَبسَبِ
ما لكِ يا هذهِ لا تضحكينْ للحَبَبِ الضاحكِ في الكاسِ ؟
قالتْ : نهاني أنّ موجَ السنينْ سيغمرُ الأقداحَ والحاسي !

وسرتِ في الروضةِ شاعَ الجمالْ ... فيها، وشاعَ الحبُّ بينَ الطيورْ
الطلُّ فيها كدموعِ الدلالْ ... والشوكُ فيها كحديثِ الغرورْ
مشيتِ في أرجائها كالخيالْ ... يطوفُ في الظلماءِ بينَ القبورْ
كأنّما لا وردَ في الياسمينْ ... كأنّما لا عطرَ في الآسِ
ويحكِ! لا في عزلتي تطربينْ ... ولا إذا كنتُ معَ الناسِ

...

كانَ زمانٌ كنتِ تستأنسينْ ... بكلِّ وهمٍ خادعٍ كالسرابْ
حتى إذا أسفرَ وجهُ اليقينْ ... رأيتهِ كالوهمِ شيئاً كُذابْ
دنيا الورى ليلٌ وصبحٌ مبينْ ... وليسَ في دنياكِ إلّا الضبابْ
ما لاحتِ الأشجارُ للناظرينْ ... إلّا رأيتِ شبحَ الفـاسِ!
ولا سمعتِ الكاسَ ذاتِ الرنينْ ... إلا سمعتِ حطمةَ الكاسِ!

...

مسختِ في عينيَّ لونَ النهارْ ... لمّـا محتِ الليلَ بالمرصدِ
وماتَ في أذنيَّ لحنُ الهزارْ ... لمّـا سبقتِ الصمتَ للمنشدِ
فرتِ باللذّاتِ قبلَ الفرارْ ... فضاعَ يومي حائراً في غدي
خالفتِ مقياسَ الورى أجمعينْ ... فكيفَ يرضونَ بمقياسي؟
ما برحَ الناسُ كما تعلمينْ ... ولم أزلْ فرداً منَ الناسِ

لم يبق غير الكاس

لم يبقَ ما يُسليكَ غيرُ الكاسِ ... فاشربْ، ودعْ للناسِ ما للناسِ!
ذهبَ الشبابُ على الشجونِ تبثُّها ... لأخٍ مؤاسٍ أو لغيرِ مؤاسِ
وعلى الحياةِ تحارُ في أطوارِها ... وتحارُ في تعليلِ كلِّ نطاسي
ثم استفقتَ وليسَ في روضِ المنى ... إلّا الضبابُ وغيرُ شوكِ الياسِ
وجراحُ نفسٍ ينظرُ الآسي لها ... فيعودُ محتاجاً لآخرَ آسِ
الحسُّ مجلبةُ الكآبةِ والأسى ... قمْ ننطلقْ من عالمِ الإحساسِ
وأرى السعادةَ لا وصولَ لعرشِها ... إلّا بأجنحةٍ من الوسواسِ
فكأنّما هي صورةٌ زيتيّةٌ ... للشطِّ فيه مراكبٌ ومراسي
تبدو لعينيكَ السفائنُ عوّماً ... وتكادُ تسمعُ رعشةَ الأمراسِ
لكن إذا أدنيتَها ولمستَها ... لم تلقَ غيرَ الصبغِ والقرطاسِ
دنيا مزيّفةٌ ودهرٌ ماذقٌ ... ما في انفلاتِكَ منهما من باسِ
إنّ اللذاذاتِ التي ضيّعتَها ... رجعتْ إليكَ عصارةً في الكاسِ
فاصبغْ رؤاكَ بها تعُدْ ذهبيّةً ... عطريّةَ الألوانِ والأنفاسِ
واخلُقْ لنفسِكَ بالمُدامةِ جنّةً ... في الأربُعِ المهجورةِ الأدراسِ

ألحبُّ فيها بلبلٌ وخميلةٌ ... وندًى وأضواءٌ على الأغراسِ
للقصرِ يخلقهُ خيالكَ روعةٌ ... كالقصرِ من جُذرٍ ومن آساسِ

. . .

يا أيها الساقي أدرْ كاساتِها ... كمشاعلِ الرهبانِ في الأغلاسِ
وانسَ الهمومَ فليس يسعدُ ذاكرٌ ... واسقِ النجومَ فإنها جلاّسي
واصرعْ بها عقلَ النديمِ ولبَّهُ ... ما نغّصَ الحاسي كعقلِ الحاسي
واهجرْ أحاديثَ السياسةِ والأُلى ... يتعلّقونَ بحبلِ كلِّ سياسي
إني نبذتُ ثمارَها مذ ذقتُها ... ووجدتُ طعمَ الغدرِ في أضراسي
وغسلتُ منها راحتي فغسلتُها ... من سائرِ الأوضارِ والأدناسِ
وتركتُها لاثنينِ: غِرٌّ ساذجٍ ... ومشعوذٍ كذَبْذَبٍ دسّاسِ
يرضى لموطنِهِ يصيرُ مُواطِناً ... وتصيرُ أمتهُ إلى أجناسِ
ويبيعها بدراهمٍ معدودةٍ ... ولو انها جاءتْ من الخنّاسِ
مـا للمنافقِ من ضميرٍ رادعٍ ... أيُّ الضميرِ لحيّةِ الأجراسِ؟

. . .

ولربَّ قـائلةٍ تعاتبُني على ... صمتي وبعضُ القولِ حزُّ مواسي:
إثنانِ مـا لاقيتُ أقسى منهما ... صمتُ الدجى والشاعرِ الحسّاسِ
فأجبتُها: أقسى وأهولُ منهما ... في مسمعي هذا العتابِ القاسي

لم تعلمي، والخيرُ أنْ لا تعلمي، ... كم في السكوتِ فواجعاً ومآسي
قالتْ: أظنكَ قد نسيتَ. فقلتُ: لا ... ما كنتُ بالناسي ولا المتناسي
لكنَّ جرحاً كلَّما عالجتُهُ ... غمرَ القنوطَ جوارحي وحواسي
ولو انه في الرأسِ كنتُ ضمدتُهُ ... لكنَّهُ في القلبِ لا في الراسِ
إنَّ الأُلى قد كنتُ أرمي دونهم ... غلّوا يديَّ وحطّموا أقواسي
واستبدلوا سيفي الجرازَ بأسيفٍ ... خشبٍ وباعوا عسجدي بنحاسِ
والطلُّ غيرُ الماسِ، إلا أنهم ... خُدعوا برقرقةِ الندى عن ماسي
وإذا حسبتَ الروضَ تُغني صورةٌ ... عنهُ فذلكَ مُنتهى الإفلاسِ
أسدُ الرخامِ وإن حكى في شكلهِ ... شكلَ الغضنفرِ ليس بالفرّاسِ

. . .

قد كانَ لي حُلمٌ جميلٌ مونقٌ ... فأضعتُهُ لمّـا أضعتُ نعاسي
فكّرتُ في ما نحنُ فيه كأمّةٍ ... وضربتُ أخماسي إلى أسداسي
فرجعتُ أخيبَ ما يكونُ مؤمّلٌ ... راجٍ وأخسرَ ما يكونُ الخاسي
نرجو الخلاصَ بغاشمٍ من غاشمٍ ... لا يُنقذُ النخّاسَ من نخّاسِ
ونقيسُ ما بينَ الثريّا والثرى ... وأمورنا تجري بغيرِ قياسِ
نغشى بلادَ الناسِ في طلبِ العلى ... وبلادنا متروكةٌ للناسِ
نكادُ نفترشُ الثرى وبأرضنا ... للأجنبيِّ موائدٌ وكراسي

ونلومُ هاجِرَها على نسيانِهِ   واللائمُ الناسينَ أوّلُ ناسي
ونبيتُ نفخرُ بالصوارمِ والقنا   ورقابُنا ممدودةٌ للفاسِ
كم صيحةٍ للدهرِ في آذاننا   مرّتْ كما مرّتْ على أرماسِ

. . .

تُغنيكَ أوجههمْ وحسنُ خلاقهمْ   عن كلّ وردٍ في الرياضِ وآسِ
أنا بينهم أسدٌ وجدتُ عرينتي   أنا بينهمْ ظبيٌ وجدتُ كِناسي
وطني أحبُّ إليّ من كلّ الدُنى   وأعزُّ ناسٍ في البريةِ ناسي
فلتحيَ سوريا التي نحيا لها   وليحيَ لبنانُ الأشمُ الراسِ

•

الخمر والدنيا

يشربُ بنتَ الكرمِ بعضُ الناسِ   لكربةٍ في النفسِ أو وسواسِ
وبعضهمْ لأنـهُ قد ظفرا   وبعضهمْ لأنـهُ قد خسِرا
وبعضهمْ لأنـهُ في فرحِ   وبعضهمْ لأنـهُ في ترحِ
وبعضهمْ كي يستردَّ الأسا   وبعضهمْ يجرعها كي ينسى
وبعضهمْ ليستفيدَ قوةْ   وبعضهمْ لسورةِ الفتوةْ
وبعضهمْ كيما يحلُّ مشكلهْ   وبعضهمْ لأنهُ لا شغلَ لهْ
وبعضهمْ عن رغبةٍ وعن هوى   وبعضهمْ لعلهُ يرضي السّوى
وبعضهمْ من حبهِ للبائعِ   وبعضهمْ نكايةً للمانعِ
وبعضهمْ يشربها أحيانا   وبعضهمْ في أيّ وقتٍ كانا
وبعضهمْ مع صَحْبِهِ في الدارِ   وبعضهمْ في حانةِ الخمّارِ
وبعضهمْ مع زمرةِ الندمانِ   وبعضهمْ في وحدةِ الرهبانِ
وبعضهمْ في الصيفِ ذي الرمضاءِ   وبعضهمْ في زمنِ الشتاءِ

(٣١)

وبعضهمْ عندَ انجيابِ الظلمةْ   وبعضهمْ عندَ طلوعِ النجمةْ

وبعضهمْ يذمُّهـا استهجانا   وبعضهمْ يمدحُها استحسانا

لكنّهمْ كلّهمْ يحسوها   ألمادحوهـا والمقبّحوها

فما وجدتُ في زماني رَجُلا   وقلتُ : هل تحبُّها؟ فقال : لا

وسرُّ هذا أنهـا كالدنيا   تؤذي ولكن مع أذاها تُهوى

ضيف ثقيل

أقصُّ عليكمْ ما جرَى لي بالأمسِ   فلي قَصَصٌ تجلو الهمومَ عن النَفْسِ

إذا قُلتُ قالَ الدهرُ أحسنتَ يا فتى   ولو كانَ ذا حسٍ لَغابَ عنِ الحِسِّ

فدونكمُ هذا الحديثُ فـإنّهُ   ألذُّ وأشهى مِنْ مُعاقرةِ الكأسِ

جلستُ إلى طِرْسي وقد عَسْعَسَ الدُّجى

أسطِّرُ مـا توحيهِ نفسيَ في طِرْسي

وليسَ سوى نورٍ ضئيلٍ بجانبي   يلوحُ ويَخفى كالرّجاءِ لدى اليأسِ

وكالنّقعِ في جَوفِ الدواةِ أوِ الدُّجى

وكالهِنْدَوانيِ بَيْنَ أنمـليَ الخَمْسِ

فصاحةُ قسٍ أودعتْ في لسانِهِ   وحكمةُ لُقمانَ، ويُحسَبُ في الخُرسِ

ضعيفُ الخطى، بادي النحولِ كأنما   يُشدُّ إلى قيْدٍ، يُشَدُّ إلى حَبْسِ

أقلّبهُ فوقَ الطروسِ وإنمـا   أقلّبُ فوقَ الطِرْسِ سعدي أو نحسي

فنبّهني طَرْقٌ على بابِ غُرفتي   وصَوتٌ ضعيفٌ وهو أقربُ للهَمْسِ

نهضتُ، ونحنُ مثلما ينهضُ الذي   بِهِ نشوةٌ، أو من يَفيقُ من المَسِّ

ولمــا فتحتُ البابَ أبصرتُ راهباً

ولو كنتُ طفلاً قلتُ غولٌ من الإنسِ

فأزعجني مَرآهُ حتى كأنما

رسولُ الرَّدى قد جاءَ يَنعى ليَ نفسي

فقلتُ وَقاني اللهُ شرَّكَ مــا الذي

أتى بِكَ، يامشؤومُ، في ساعةِ الأُنسِ

أجابَ كُفيتَ السوءَ جِئتُكَ طالباً   مَديحكَ لي بَينَ الأعاربِ والفُرْسِ

فقلتُ وحقِّ الشِعرِ مَدحُكَ واجبٌ   ومثلي يَقضيهِ على العَيْنِ والرأسِ

خَبرتُ بني الدنيا وفتَّشتُ فيهمُ   فلمْ تَرَ عَيني قطُّ أثقلَ من قسِّ

ذكرى وعبرة

عاطيتُها في الكأسِ مثلَ رُضابِها   تسري إلى قلبِ الجبانِ فيشجعُ

يطفو الحبابُ على أديمِ كؤوسِها   فكأنَّ تبراً باللُّجَيْنِ يرصَّعُ

وكأنما تلكَ الكؤوسُ نواظرٌ   تَبكي، وهاتيكَ الفواقعُ أدمعُ

مشمولةٌ تُغري بصُفرتِها البخيـ   لَ بها فَيطمَعُ بالنُّضارِ وتطمعُ

شمطاءُ إلّا أنهــا محجوبةٌ،   عَذراءُ إلّا أنهــا لا تُمنعُ

ما زلتُ أسقيها إلى أنْ أخضعتْ   منها فُؤاداً للهوى لا يخضعُ

فَعلَتْ بِها مثلُ الذي فَعلَتْ بنا   ألحاظُها، إنَّ اللّحاظ لتَصرَعُ

لما انتشتْ ومضى الحَفاءُ لشأنِهِ   باحتْ إليَّ بما تُكِنُّ الأضلعُ

بَرِحَ الحياءُ وأعلنتْ أسرارَها   إنَّ الحياءَ لكلِّ خَودٍ بُرقُعُ

فَعلِمتُ أني قد خُدِعتُ بحبِّها   زَمناً، وكنتُ أظنّني لا أخدعُ

ما كنتُ أعلمُ قبلَ أنْ أسكرتُها   أنَّ الفؤادَ بحبِّ غيريَ مُولَعُ

فتركتُها تشوى تُغالِبُ أمرَها   والأمرُ بعدَ وقوعِهِ لا يُدفَعُ

ورَجعتُ عنها واثقاً من أنَّ ما   قد كانَ مِن حبّي لها لا يَرجعُ

لبكيتُ لو أن البكاءَ أفادَني   وندمتُ لو أنَّ الندامةَ تنفعُ

من أنا

أنا . من أنا يا تُرى في الوجودِ ؟ ... وما هُوَ شأني ، وما موضعي ؟

أنا قطرةٌ لَمَعَتْ في الضحى ... قليلاً على صَفْحَةِ المشرَعِ

سيأتي عليهـا المساء فتغدو ... كأنْ لم تَرقرقْ ولم تلمعِ

أنا نغمةٌ وقّعتها الحيـاةُ ... لمنْ قد يَعي ولمنْ لا يعي

سيمشي عليها السكوتُ فتُمسي ... كأنْ لم تمرَّ على مِسمعِ

أنا شبحٌ راكضٌ مسرعٌ ... مع الزمنِ الراكضِ المسرعِ

سيُرخى عليه الستارُ ويَخفى ... كأنْ لم يجدَّ ولم يهطعِ

أنا موجةٌ دفعتها الحيـاةُ ... إلى أوسعٍ فـإلى أوسعِ

ستنحلُّ في الشطِّ عمّا قليلٍ ... كأنْ لم تَدفَّعْ ولم تُدفَعِ

فيا قلبُ لا تغترِرْ بالشبابِ ، ... ويا نفسُ بالخلدِ لا تطمعي

فإنَّ الكهولةَ تمضي كما ... تولّى الشبابُ ولم يرجعِ

ولكنْ فيها جمالاً بديعاً ... وفيها حنينٌ إلى الأبدعِ

ومن لا يَرى الحسنَ في ما يراهُ ... فما هو بالرجلِ الألمعي

بَني وَطني من أنا في الوجودِ ... وما هو شأني وما موضعي ؟

أنا أنتمْ إنْ ضحكتمْ لأمرٍ ... ضحكتُ ، وأدمعكمْ أدمعي

وتطربُ أرواحكمْ مطربي ... وتُوجعُ أكبادكمْ موجعي

أما نحنُ مِنْ مصدرٍ واحدٍ ؟ ... ألسنا جميعاً إلى مرجعِ ؟

رفعتمْ مُقـامي وأعليتموهُ ... لمـا قد صنعتُ ولم أصنعِ

أحقٌّ يا كرامكمْ طائرٌ ... يُغرِّدُ في الرَّوضِ والبلقعِ

وأولى بـهِ كوكبٌ طالعٌ ... على سُهَّدٍ وعلى هُجَّـعِ

أنا واحدٌ منكمُ ، يا نجوم ... بلادي ، متى تسطعوا أسطعِ

فمَنْ قـامَ يمدحُني بينكمْ ... فقد تُمدَحُ الكفُّ بالإصبعِ

وما الغيثُ غيرُ الخضمِّ ، وليسَ ... الغديرُ سوى السُّحْبِ الهُمَّعِ

فلولاكمُ لم أكنْ بالخطيبِ ... ولا الشاعرِ الساحرِ المبدعِ

أنا الآنَ في سكرةٍ لا أعي ... فيـا لَيتَني دائماً لا أعي

فذي ليلةٌ بجميعِ الزمانِ ... إذا كانَ في الدهرِ من أجمعِ

فيا أيُّهـا الليلُ باللهِ قِفْ ، ... ويا أيُّهـا الصبحُ لا تطلعِ

إذا كنتُ قد بِنْتُ عن مربعي ... فـإنّي وجدتُ بِكُمْ مربعي

يميناً سأحملُ في أضلعي ... هواكمْ مـا بقيتْ أضلعي

وأشكركمْ بلسانِ النسائمِ ... والروضِ والجدولِ المُترَعِ

فلا عذرَ للطيرِ إمّـا رأى ... جمالَ الربيعِ ولم يسجعِ

إذا لم أكنْ معَكمْ في غدٍ ... فـإنّي سأمضي وأنتمْ معي

لو

لو أنني، يا هندُ، بَدْرَ السما — نزلتُ من أفقي إلى مَخدعِكْ
وصرتُ عِقداً لكِ أو خاتماً — في جيدكِ الناصعِ أو إصبعِكْ
أو بلبلَ الروضِ، ما لذّ لي — الانشادُ إنْ لم يكُنْ في مسمعِكْ

ولو أكونُ الأرَجَ الذاكي
لما هجرتُ الروضَ لولاكِ
وما حواني غيرُ مغناكِ
ولم أفحْ حتى تكوني معي

•

فيكِ وفي الوردةِ سرُّ الصبا — وفي الصبا سرُّ الهوى والجمالْ
فإنْ ترَيْني واجماً باهتاً — حيالها أخشى عليها الزّوالْ
فإنني شاهدتُ طيفَ الردى — ينسلُّ كالسارقِ بينَ الظلالْ

ولاحَ لي في الورَقِ النامي
منطرحاً في الأرضِ قدّامي
أشباحُ آمالي وأحلامي
أحلامُ مَن؟ أحلامُ مضناكِ

ليتهم عرفوه!

رثى بها صديقه يعقوب روفائيل
صاحب مجلة الأخلاق.

يا نفسُ قد ذَهَبَ الرفيقُ الألمعي — فتجلّدي لفراقِهِ أو فاجزعي
هذي النهايةُ، لا نهايةَ غيرها، — للحيِّ إنْ يُسرِعْ وإنْ لم يُسرِعِ
للموتِ مَنْ مَلَكَ البسيطةَ كلَّها — أو حازَ مِنْ دُنياهُ بضعةَ أذرعِ
فازرعْ طريقَكَ بالورودِ وبالسنا — لا يحصدُ الإنسانُ إنْ لم يزرعِ
واعملْ لكي تمضي وتبقى رقةً — في مَبْسِمٍ، أو نغمةً في مِسْمعِ
أو صورةً مثلَ الربيعِ جميلةً — في خاطرٍ أو ناظرٍ مُستمتِعِ

***

يا صحبَ يعقوبٍ، ويا عشراءهُ — مَنْ مِنكُمو أبكي ولا يَبكي مَعي
إنّا تَساوَيْنا فَبَيْنَ ضلوعِكُم — نارٌ وَمِثْلُ سَعيرِها في أضلعي

***

لبنانُ، هذا مِنْ رِياضِكَ زَهرةٌ — ذَهبتْ كأنْ في الأرضِ لم تتضوّعِ
لبنانُ هذا مِنْ سَمائِكَ كَوكَبٌ — غرّبتَهُ حتى انطوى في بَلقَعِ

لبنانُ هذا من مروجِكَ قِطعةٌ … فيه بشاشةُ كُلِّ مرجٍ مُمرعِ
قُلْ للبنفسجِ في سفوحِكَ والرُّبى … ولّى شبيهُكَ في الوداعةِ فاخشعِ
وأْمُرْ طيورَكَ أن تنوحَ على فتى … قد كانَ يهواها وإنْ لم تسجعِ
قد عاشَ مثلَكَ للمروءةِ والعُلى … متعففاً كالزاهدِ المتورّعِ
مترفّعاً في قولِهِ وفعالِهِ … عمّن غوى وهوى ولم يترفّعِ
كم حرّضتهُ النفسُ في نزواتِها … ليكونَ صاحبَ حيلةٍ أو مطمعِ
فأجابها: يا نفسُ لا تتورّطي … صدأُ النفوسِ هيَ المطامعُ فاقنعي
ليسَ المحاربُ في الوغى بأشدَّ بأ … ساً من محاربِ نفسِهِ أو أشجعِ

***

يا صاحبي أضنيتَ جسمكَ فاسترحْ
وأطلتَ، يا يعقوبُ، سُهدكَ فاهجعِ

حدّثتَ قومكَ حقبةً فتسمّعوا … والآنَ دورُ حديثِهمْ فتسمّعِ
هجروا الكلامَ إلى الدموعِ لأنّهمْ … وجدوا البلاغةَ كلّها في الأدمعِ
كيفَ التفتُّ وسرتُ لا ألقى سوى … متوجّعٍ يشكو إلى متوجّعِ
حتى الألى نفثوا عليكَ سمومَهمْ … حزَّ الأسى أكبادَهمْ كالمبضعِ
عرفوا مكانكَ بعدَ ما فارقتَهمْ … يا ليتَهمْ عرفوهُ قبلَ المصرعِ
ولكمْ تمنّوا لو تعودُ إليهمُ … أنتَ الشبابُ إذا مضى لم يرجعِ

حنّوا إلى أرجِ الأزاهرِ بعدما … عبثَتْ بها أيدي الرياحِ الأربعِ
واستعذبوا الماءَ المسلسلَ بعدما … نضبَ الغديرُ وجفَّ ماءُ المشرعِ
يا لوعةَ الأحبابِ حينَ تساءلوا … عنهُ وعادوا بالجوابِ الموجعِ
إنّ الذي قد كانَ معكُمْ قد مضى … من موضعٍ أدنى لأرفعِ موضعِ
من عالمٍ متكلّفٍ متصنّعٍ … تشقى نفوسٌ فيهِ لم تتصنّعِ
للعالمِ الأسمى الطهورُ، ومن نجا … وردَ الأنامُ إلى جوارِ المبدعِ